حكايات الكورونا

مجموعة قصصيّة

ناشرون

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لدار ناشري للنشر الإلكتروني. **www.Nashiri.Net**

نشر إلكترونيا في ربيع الثاني ١٤٤٢/ديسمبر ٢٠٢٠.

يمنع منعا باتًّا نقل أيّة مادة من المواد المنشورة في ناشري دون إذن كتابي من الموقع. جميع الكتابات المنشورة في موقع دار ناشري للنشر الإلكتروني تمثل رأي كاتبيها، ولا تتحمل دار ناشري أيّة مسؤولية قانونية أو أدبية عن محتواها.

محتـــويات الكتـــــاب

المقدمة 3
الكابوس 4
أَمان 16
مَرَايِم 27
تأثير الخفَّاش 40
رسالة إلى الولد 49
زوايا منفرجة 59
الوجه الآخر من كوفيد 19 73
تعافٍ 90
تنهيدة حارّة 98
ملاذ 108
هزيمة كورونا 122
المولود 137

المقدمة

كورونا، جائحة تجتاح العالم، تقيم الدنيا ولا تقعدها.
لا شيء كالإيمان باللّه تعالى يُنقذ الإنسان من الفواجع والمواجع، ويُبلسم جراحه، ويعينه على المضي.

حكايات كثيرة يمكن أن تروى. هذه الجائحة عبارة عن حكاية في بطن حكاية في بطن حكاية. لكن ثمة حكاية أحبّ وأبقى، حكاية الإنسان حينما يستعين بقوة اللّه العليّ ليجابه المخاوف.

في دار ناشري بحثنا عن هذه الحكايات! حكايات الخيط الشفيف الذي يصل الإنسان بالسماء؛ الحبل المتين الذي يجعله يتجلّد وينهض.

وقد بلغ عدد المشاركات التي وصلت دار ناشري ٤٠ مشاركة، اخترنا منها ١٢، تجدونها في هذا الكتاب.

دار ناشري للنشر الإلكتروني.
ربيع الثاني ١٤٤٢، ديسمبر ٢٠٢٠

الكابوس

د. مجدي مصطفى القوصي

"في هذا الكابوس أنت لا تفعل شيئًا... أيَّ شيء! أنت لا تتحرك من مكانك، لا تخرج من بيتك، لا تذهب الى العمل، لا تشرب القهوة أو الشاي في مقهاك المعتاد، لا تمرّ على أصدقائك، لا تودّ جيرانك، لا تبرّ أهلك، لا تمشي على الشاطئ مع من تحبّ، لا تلعب في الحديقة مع أبنائك... لا، لا، لا...

في هذا الكابوس أنت تحترق، تتألّم، تتوجّع، تنتفض، تختنق، تغرق في أعماق أعماقك.

في هذا الكابوس أنت لا تعرف شيئًا... أيَّ شيء! لا تعرف كيف بدأ! لا تعرف إلامَ سينتهي! لا تعرف من! متى! أين!

من بعيد أسمع صوت جرسٍ يرنُّ بإصرار؛ أبدأ في الانتباه، أبدأ في فتح عيني... أحمد اللّه أنّي قد صحوت. أنظر حولي بكسل، أسمع ضربات قلبي ترجّ جدران الغرفة... أعتدل قليلاً، أعتدل أكثر، أزداد انتباهًا...

بعينين مفتوحتين الى أقصى اتّساعٍ لهما، وبوضوح تامّ، بل وبالتّفاصيل الدّقيقة، أرى الكابوس وقد خرج إليَّ، وصار في دقائق جاثمًا بقوّة على صدري".

أتوقّف عند هذا الحدّ، أنظر إلى السّاعة... حسنًا، ما يزال هناك متّسعٌ من الوقت؛ يمكنني استكمال الأحداث... أرشف رشفةً من كوب الشّاي وأقضم قضمةً صغيرةً من شطيرةٍ ما؛ أرجّح أنّه جبن... وأعود إلى الكتابة.

"يُفتح الباب ببطء... أنظر ناحيته؛ تدخل الممرِّضة في لباس العزل الكامل، تقول شيئًا وهي تمدُّ يدها... لا أسمع ما تقوله بالضَّبط! أشير الى ذلك؛ فترفع صوتها قليلاً، ثمَّ أكثر، ثمَّ أكثر ممَّا يجب.

-مكالمةٌ لك.
أنظر متسائلاً.
تستأنف: من السَّيِّدة الوالدة.
تمدُّ يدها إليَّ بالهاتف... يقطع الفيروس عليها الطريق؛ يتناول منها الهاتف، يقلِّبه على كلِّ جانب... يتأكَّد أنَّه ليس نوعًا جديدًا من العلاج؛ يناوله لي. تنظر إليه باستهزاء ثمَّ تقول: "أَمَا تزال هنا يا مضروب؟ ألن نرتاح من وجهك الكالح؟ سأنتظر في الخارج. ضع الهاتف بجانبك بعد انتهاء المكالمة!"، ثمَّ وهي تنظر إلى الفيروس مهدِّدةً: "هذا هاتفي الخاصُّ! إيَّاك أن تخرِّبه!"
-آلو!
-نعم. يا حبيبي، كيف حالك؟
أكحُّ قائلاً: الحال على ما هو عليه.
-ألاَ تحسُّ ببعض التَّحسُّن؟
-ليس كثيرًا.
-أحسُّ بقلق شديد عليك.
-الحمد للّه على كلِّ حال.
-أَمَا تزال الكحَّة على حالها؟
-وضيق النَّفَس أيضًا.
-لأنَّك لا تسمع الكلام.
-ماذا تعنين؟
-أوصيتك بالصَّلاة. هل صلَّيتَ اليوم؟ هل دعوتَ ربَّك؟ بالطَّبع لا.
-ليس بالضَّبط.
-لا تكذب! الكذّاب يذهب إلى النَّار، وأنت أصلاً على شفا الحفرة.
-وهل المفروض أن يشجِّعني هذا الكلام؟
يضحك الفيروس بشدَّة؛ فأشير إليه أن يهدأ قليلاً حتى أستكمل المكالمة... أكحّ.
-الكلام لمصلحتك.
-حسنًا، حسنًا، هل الجميع بخير؟
-الكلُّ بخير عداك، عِدْني أن تصلِّي وتدعو اللّه أن يزيح عنك الغمَّة!
-حسنًا يا أمي.

-عِدْني!
-أَعِدُك.
-أدعو لك في كلِّ صلاة، الظَّاهر أنَّ ذنوبك كثيرة، وأنَّ اللّه يعاقبك عليها.
-ماذا! ولكنِّي...
-على العموم إنَّ اللّه غفورٌ رحيم... اللَّهمَّ لا نسألك ردَّ القضاء، ولكنْ نسألك اللُّطف فيه.
يكاد الفيروس أن ينفجر من الضَّحك، وهو يشير إليَّ! أكحّ... تستأنف:
-حسنًا لن أطيل عليك... لا تنسَ ما قلتُه لك! ألف سلامة.
أستمرُّ في الكحَّة ويضيق نفَسي قليلاً... يكاد الهاتف أن يقع مني، يتناوله الفيروس ويضعه بحرص على الطَّاولة الصَّغيرة. يصعد بجانبي على السرير، ويضيِّق الأمرَ عليَّ أكثر وأكثر."

أتوقَّف. أعيد قراءة ما كتبت، أرشف من الشَّاي، وأقضم من الشَّطيرة؛ أعتقد أنَّها شطيرة مربَّى مشمش، وليس جبن... أحرِّك رقبتي يمنةً ويسرة، أضغط بأصابعي على يدي اليمنى؛ لأفكَّ الشَّدَّ العضليَّ، أنظر إلى السَّاعة، ثمّ أستأنف.

"أحاول أن أتمالك نفسي، وبحركة بطيئة لكنْ بإصرار؛ أحاول إزاحة الجاثم من عليَّ... أنجح أخيرًا في زحزحته قليلاً؛ أخلع قناع الأكسجين البلاستيكيّ... أنزل بقدمي اليمنى أوَّلاً، أعتدل، أنزل باليسرى؛ وأقف. أحرِّك ساقي وذراعي قليلاً، وأتجَّه بخطوات قصيرة إلى جانب الغرفة. أتناول سجادة الصَّلاة وأفردها على الأرض. ألاحظ أن الفيروس قد استلقى باسترخاء على السرير في انتظاري... أنوي وأكبِّر.
أبدأ الصلاة، أقرأ الفاتحة وقصار السُّور، أركع، ثمَّ أسجد... الشَّهادة... التَّحيَّات، وأدعو اللّه! أدعوه أن يفكَّ أسري وأسر العالم كلِّه، وأسأله أن يزيح الغمَّة عنِّي وعن العالم أجمع: شماله وجنوبه، شرقه وغربه... أدعو، وأدعو، وأدعو!

ألتفتُ إلى السَّرير وأنا أقوم من على السّجَّادة... لا أجده عليه! أنظر الى الجانب الآخر من الغرفة؛ لا أحد، بجوار النافذة؛ ليس هناك، عند الباب؛ لا يوجد أحد... أحمد اللّه! تكاد الدَّمعة تطفر من عيني، أسير ناحية السرير، وأنظر أسفله للتَّأكُّد. لا أثر للفيروس هناك أيضًا.

أستلقي على السرير وأنا غير مصدِّق، آخذ نفَسًا عميقًا... أكحُّ وأسعل. أضع قناع الأكسجين، أثبِّته جيِّدًا... أكحُّ... أفتح عيني؛ فأراه متشبِّثًا بسقف الغرفة؛ ينظر إليَّ ويقول: "كنتُ أتمشَّى قليلاً".

أتوقَّف. أرشف رشفة شاي، وأفكِّر فيما سيأتي... أقرِّر تجربة زاوية جديدة، يرنُّ جرس الهاتف الداخليّ: "حسنًا، حسنًا، ما يزال الوقت مبكِّرًا علَى ذلك، أمامي أكثر من ساعة... تعرفين أنِّي لا أنسى مواعيدي أبدًا، لا عليك، الشَّطيرة؟ أعتقد أنَّها شطيرة بيض، حسنًا"، أضع السَّماعة، أرشف رشفةً أخرى من الشَّاي، وأعود للكتابة.

"يُطرَق الباب ثلاث طرقات... أرنو نحوه؛ يفتح بهدوء، ويدخل ثلاثتهم: شيخ وكاهن وحاخام. أؤكِّد أنَّ هذه ليست بداية نكتة.

-السَّلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

-مساء الخير يا ابني.

-شلومو عليخم.

أنظر إلى الثلاثة باستغرابٍ وحيرة، ومع ذلك أردُّ السَّلام على ثلاثتهم. يتقدَّمون منّي، يحيطون بي. واحد من اليمين، وواحد من اليسار، والثالث عند القدمين. ألاحظ أنَّهم يرتدون كمامات واقية من النوع المتعدِّد الطبقات. ألاحظ أيضًا أنَّهم يرتدون قفازات عازلة، ومن النوع المتعدد الطبقات أيضًا. وفي يد الشيخ مسبحة معزولة في كيسٍ خاصٍّ، وحول رقبة الكاهن صليبٌ معقَّم، وعلى رأس الحاخام طاقيَّة صغيرة مغلَّفة بغلافٍ عازل.

-جئنا لنصلّي لك.

تمنعني الكمامات من معرفة من القائل... أهزُّ رأسي شاكرًا!

يبدأ الثلاثة في قراءة الدعوات والبركات. تتداخل أصواتهم. أحاول أن أطلب منهم القراءة بالدَّور. والكمامات للمرة الثانية تمنع الكلام من أن يصل كاملاً، أسعل... أكحّ...

يختار الفايروس تلك اللحظة بالذَّات ليخرج من تحت السرير؛ يجفل الثلاثة... يُفاجَؤون بوجوده أمامهم؛ فيتوقّفون عن القراءة! ينظر كلٌّ واحدٍ منهم إلى الآخر، ثمَّ ينظرون إليَّ وهم يتراجعون قليلاً؛ أعرِّفهم به: فيروس الـ(كورونا)... يهزُّون رؤوسهم، ثمَّ يتمالكون أنفسهم، ويعودون إلى القراءة والدُّعاء بصوتٍ عالٍ. لا يعيرهم الفيروس أيَّة أهميَّة... يقفز فوق السَّرير، ثمَّ يصعد على صدري ويجثم عليه؛ أسعل وأكحُّ بشدَّة...

يُفتح الباب فجأة؛ تقف الممرِّضة المكمَّمة في الخارج وتقول: "عفوًا، ولكنْ هل انتهيتم؟ هناك رجل دين بوذيّ، وآخر من السِّيخ، بالإضافة إلى شامان في انتظار الدُّخول... لا نريد أن يزدحم المكان بأكثر ممَّا يجب! تعرفون التعليمات".

شاي، زيتونة، شريحة طماطم، منديل ورقي، وأعود إلى الكتابة.

"يُفتح الباب فتحةً صغيرة، أتوقَّع أن يُستكمل فتحُ الباب... لم يحدث ذلك! حتَّى الفيروس انتبه إلى الأمر... أرفع رأسي قليلاً، ينظر هو الآخر؛ لعلَّه دواء جديد، أو طريقة لتخفيف الألم، أو فكٍّ ضيق النَّفَس... أكحّ.

-من هذا؟

أسمع ولكنِّي لا أرى أحدًا. هل بدأت التَّهيُّؤات؟

-من هذا؟

أنتبه إلى أنّ الصَّوت قادمٌ من الأسفل. أنظر هناك. أجده واقفًا ينظر إليَّ... ولد صغير يرتدي كمامة ويحتضن كلبًا أحمر في أزرق؛ أبادره: من أنت؟

يردُّ: أنا جارك في هذا الدَّور، ولكنْ في النَّاحية الأخرى. أسكن آخر غرفة هناك بجوار المخرج. عندي هكذا (يفتح كفَّه كاملاً)، لا تخف منِّي، أرتدي كمامة حسب التعليمات، وهذا كلبي بوبو. لا تقلق منه فلقد ألبسته كمامة أيضًا، حاول الاعتراض في البداية؛ ولكنِّي خيَّرته بين لبس الكمامة والحضور معي، أو الجلوس في الغرفة وحيدًا. وها نحن! والآن... مَن هذا؟ يقول ذلك وهو يشير إلى الفيروس.

أردُّ: فيروس كورونا.
-ماذا؟ هل يمكنني اللعب معه؟
-بالطَّبع لا.
-لماذا؟
-لأنَّه مضرٌّ؛ وسيصيبك بالمرض.
-ولكنّني مريضٌ فعلاً!
-لا نريد إذن أن يزيد مرضك.

يحاول الفيروس في هذه الأثناء الاقتراب من الولد، ولكنّ الكلب المحشوّ يكشّر عن أنيابه ويصدر أصواتًا مهدِّدة؛ يربت الولد عليه.

-الظَّاهر أنَّ كلامك صحيح؛ فحتَّى بوبو يشعر بذلك، ولكنْ ما دام كولونا هذا شرِّيرًا إلى هذا الحدِّ فلماذا تتركه يجلس معك هنا في الغرفة؟
-ليس الأمر بيدي. هذه طريقته في تنغيص الحياة على الجميع.
-يشبه في ذلك الولد زرزور السَّنكوحي.
-مَن زرزور هذا؟
-زميلي في الحضانة، له أخلاق هذا الفيروس، اسمه في الحقيقة ليس زرزور، اسمه شادي؛ ولكن طريقته طريقة زرزور.
-لم تقل لي ما الذي جاء بك إلى هنا؟ وكيف سمحوا لك بالدُّخول؟
-الملل... عندما أحسُّ بالملل أمرُّ على المرضى الآخرين وأشدُّ أزرهم.
-ماذا؟
-والجميع هنا اعتاد على وجودي فلا يمنعني أحد.

يحاول الفيروس الاقتراب ثانيةً من الولد. ينبح الكلب ويحاول القفز من حضن الولد والانقضاض عليه؛ يربت عليه الولد قائلاً: اهدأ يا بوبو!، اهدأ!

-هل تريد شكولاتة أو مصّاصة؟ لديّ بعضها في الدُّرج.
-شكرًا! ولكنِّي لا أريد الإصابة بالعدوى.
-ولدٌ ذكيّ.
-شكرًا! ومتى ستشفى إذن؟
-اللّه أعلم.
-هل تتناول الدَّواء بانتظام؟

-نعم يا... دكتور.
-هل تنفِّذ كلَّ التَّعليمات بدقَّة؟
-نعم.
-هل تصلِّي وتدعو اللّه؟
-ماذا؟ هل تعرف أمِّي؟
-أعرف كلَّ الأمَّهات.
-ماذا؟
-تقول مِس أمل...
-من هي مِس أمل؟
-مِس أمل هي مدرِّسة الدِّين في الحضانة، في الحقيقة هي تدرِّس لنا الدِّين والأغاني والألعاب، نحن في حضانة، حضانة، أي لسنا في المدرسة بعد، لا نأخذ الحساب، أو العلوم، أو أيّ شيء من هذه الأشياء، هذا للكبار في سنة أولى.
-حسنًا.
-قصَّت علينا مِس أمل قصّةً طويلةً عن رجلٍ وناقة، النَّاقة هي زوجة الجمل. هل كنت تعرف ذلك؟
-نعم.
-رجل وناقة وحبل، وفي نهايتها "اعقلها وتوكَّل!"، تعرف هذه القصَّة، أليس كذلك؟
-ومن الذي لا يعرفها.
-حسنًا، اعقلها وتوكَّل، أي خذ دواءك واطلب من اللّه أن يشفيك، أنا متأكِّد أنَّ هذا سوف يحدث.
-حسنًا.
-والآن، سأعود إلى غرفتي؛ فقد حان موعد العشاء، يحضرون لي بطاطس وقطع دجاج صغيرة وجيلي، نصيحة أقولها لك يمكنك الاستفادة منها.
-ما هي؟
-إذا كنتَ لطيفًا، وقلتَ نكاتًا لمسؤولة الطَّعام فسوف تعطيك علبة جيلي إضافيَّة.

-فعلاً؟
-فعلاً. ومرَّة جاءت لي كذلك بعلبة عصير.
-عصير؟
-مانجو.
-حسنًا.
-الوداع الآن.
-إلى اللِّقاء.
-أفضِّل الوداع.
-حسنًا.
يتَّجه إلى الباب، ثمَّ يلتفت قبل الخروج مباشرة.
-شيء أخير.
-ماذا؟ هل تريد قطعة الشكولاتة تلك؟
-لا. شكرًا! العدوى ثانيةً، ما أريد أن أسأل عنه هو: ألا يوجد لديك كلب محشوّ مثل بوبو تحتضنه وأنت نائم في انتظار الشِّفاء؟
-لا.
-لا يشترط كلب. ممكن قطَّة، دبّ، طائر... أنت وما تحبّ.
-حسنًا... أفكِّر.
-أؤكِّد لك أنَّه يساعد.
-حسنًا.
-الوداع.
-الوداع.

يرنّ الجرس الصّغير في هاتفي. يذكّرني بأنّ الوقت قد حان. أتناول آخر قطعة من الشّطيرة؛ أكاد أكون متأكِّدًا أنّها شطيرة فلافل، وأرشف الرشفة الأخيرة من كوب الشّاي. أضع الأوراق جانبًا، وأتجَّه إلى الغرفة الأخرى. لحسن حظي أو لعلَّه لِسوئه، لا يوجد أحد غيري هنا. الضَّغط سحب الجميع.

أخلع ملابسي قطعةً قطعة... أغسل يدي وذراعي ووجهي جيِّدًا، ثمَّ أقرِّر الاستحمام زيادةً في التعقيم. أعود بعد الحمام فأغسل يدي وذراعي ووجهي ثانيةً. أبدأ بعد ذلك في ارتداء ملابسي قطعةً قطعة... مراعيًا الترتيب... آخر

ما أضع، القناع الطبّيّ ومثبّتاته... أنظر إلى المرآة. أتأكّد أنّ كلّ شيءٍ في موضعه. أهزّ رأسي. أتجّه إلى الباب الخاصّ، وأفتحه بقدمي.

لم أعد أجد صعوبةً، كما كان يحدث في البداية، مع كلّ تلك الملابس. أتحرّك بحريّة نسبيّة في طريقي لبدء جولة المساء. أحيّي الممرّضة المناوبة بإشارة من يدي. تشير بيدها وهي تردّ على الهاتف. أسمعها تقول: "يا حاجّة! ألم تكلّميه منذ قليل؟ لا أستطيع أن أترك مكاني وأدخل عليه كلّ خمس دقائق لأعطيه الهاتف؛ لديّ عمل ولديّ تعليمات، العفو. العفو يا حاجة! أنت مثل أمّي، ولكن هكذا حكمت الظّروف، ماذا؟ بالطّبع يأكل، ويشرب، ويأخذ الدّواء، نعم. شاهدت سجّادة الصّلاة في الغرفة، لستُ متأكّدة، حسنًا، حسنًا أقسم لك، مع ألف سلامة"... آه! لو أعرف من الذي أعطاها رقم هاتفي الخاصّ... آه!" أبتسم وأشير إليها مشجّعًا. تشير بيدها ولكن لا أعتقد أنّها لمحت ابتسامتي من تحت القناع.

تقترب منّي مسؤولة العلاقات العامّة في المستشفى. تطلب أن أنضمّ إلى وفد رجال الدّين المتّحدين لالتقاط صورة تذكاريّة... أنظر إلى حيث تشير. أجدهم يقفون جميعًا وسط مجموعة من الأطبّاء في ملابس العزل تحت لافتة كبيرة (العزل الاجتماعيّ... معًا للقضاء على كورونا)... أعتذر لها بانشغالي وأهرول في اتجّاه آخر.

أثناء الاندفاع أكاد أصطدم به... أعتذر؛ يقول: "أنا بخير وكذلك بوبو"، يقولها وهو يرفع كلبه المحشوّ ذا اللّونين الأزرق والأحمر.

-حسنًا، ماذا تفعل هنا الآن؟ أليس هذا موعد العشاء؟

-نعم، في طريقي إلى غرفتي، كنت أزور أحد المرضى، لديه في غرفته فايروس كبير هكذا (يشير بيده).

-حسنًا، أنا في طريقي إليه الآن.

-وأنا سأعود إلى غرفتي.

-هل تحدّثت معه عن...

-اعقلها وتوكّل؟

-قصّتك المفضّلة، حسنًا، سأبعث لك مع مسؤولة الغذاء علبة جيلي إضافيّة وكذلك علبة عصير.

-مانجو؟
-حسب الموجود.
-أفضِّل المانجو.
-أحاول.
-ابذل مجهودًا جديًّا لو سمحت.
-حسنًا.
-شكرًا! والآن إلى اللقاء.
-إلى اللقاء.
-مجهودًا جديًّا لو سمحت.
-حسنًا.

أفتح الباب وأدخل الغرفة. على الفور، ينتفض الفيروس ويبدأ في الارتجاف... أشير إليه: لك يوم!
ثمَّ أنظر إلى المريض المستلقي على السرير وهو يكحّ. أعود فأنظر إلى الفايروس: ولكن للأسف اليوم ليس هو ذلك اليوم...
يتنفّس الصُّعداء؛ فيما يبدأ المريض في الكحَّة والسُّعال. أنظر إلى مؤشراته الحيويَّة. أنظر الى البيانات المسجَّلة. أنظر إليه:
-كيف حالك اليوم؟
يسعل... يكحّ.
-أرى هنا أنَّ الحرارة قد انخفضت، هذا مؤشِّر جيِّد!
-الحمد لله.
-أخبار ضيق النَّفَس؟
-ما يزال موجودًا.
ألمح الفيروس بطرف عيني وهو يبتسم.
-هناك تحسُّن طفيف في آخر أشعَّة.
-حسنًا.
أحاول تخفيف الجوِّ قليلاً: "السَّيِّدة والدتك كانت مع الممرِّضة على الهاتف منذ قليل"

-تريد أن تتأكَّد أنّي قد صلّيتُ ودعوتُ اللّه اليوم؟
-وهل فعلتَ ذلك؟
-إلى حدّ ما.
-هل مرّ عليك وفد رجال الدّين هنا؟
-نعم.
-و...
-لا شيء. مرُّوا عليّ كما مرّت الممرِّضة والممرِّضة الأخرى والولد اللّطيف وكلبه، ويمرُّ اليوم، واليوم الذي يليه، والذي يليه؛ وأنا على حالي.
-احمد اللّه على كلّ حال.
-لا أفهم الأمر... أنا أفعل كلَّ ما يجب عليّ أن أفعله وعلى رأي الولد الصغير: أنا أعقلها وأتوكّل!
-بمعنى؟
-بمعنى أنّي آخذ الدّواء بانتظام. أحترم التّعليمات وأنفّذها بحذافيرها. أصلّي جميع الصّلوات... أدعو اللّه صبح مساء. وأظلُّ على حالي، في السرير؛ أكحّ... أسعل... ولا أكاد أتنفّس.
-أوافقك على الجزء الخاصّ بالدّواء في كلامك. فنحن نستخدم معك أحدث أساليب العلاج وكلّما جدّ جديد طبّقناه. ولكنَّ هذا الفيروس متعب ولئيم.
يحاول الفيروس الصّعود إلى السّرير وهو يبتسم ابتسامةً خبيثة... أنهره! يعود إلى ركن الغرفة.
-أمّا ما يخصُّ الصّلاة والدّعوات؛ ففهمي للموضوع هو أنّ اللّه يضعنا أحيانًا في اختبار؛ ليرى مَن ينجح ومَن يفشل... النّجاح هنا يكمن في الصّبر والإيمان والاحتساب والأخذ بالأسباب والاعتقاد الرّاسخ أن للّه حكمة في كلِّ ما يفعل.
-أسمعهم يقولون: "ربّنا لا تضعنا في تجربة!"
-لأنَّهم يخشون الفشل والسُّقوط. اللّه يضعنا في تجربةٍ بعد تجربةٍ بعد تجربة؛ ليعرف كلُّ واحد فينا نفسه ومن منّا لديه إيمان حقيقيّ... إيمانٌ قائم على التّسليم بإرادة اللّه -سبحانه-، مع مقاومة الأفكار السّيّئة والأخذ دائمًا

بالأسباب المؤديّة إلى النّجاة... اعقلها وتوكّل، عفوًا! أحسُّ أنّي واقفٌ على المنبر أخطب خطبة الجمعة.

-كلامك يستحق التّفكير يا دكتور.

-في مهنتنا هذه نرى الكثير ونُوضَع دائمًا في تجارب، والإنسان يشاهد، يتعلَّم، يتّعظ ويحاول. واللّه لا يطلب أكثر من ذلك... تأكّد أنَّ هذا الكابوس سينتهي في يومٍ ما!

-حسنًا، ونعم باللّه.

-استمرَّ على الدَّواء. استمرّ على الدُّعاء. استمرّ في التّفاؤل. استمرّ في خوض التّجارب، واخرج منها منتصرًا بإذن اللّه وعونه. أمّا هذا (أشير الى الفيروس) فقد شاهدنا إخوة له أشدّ منه وأقوى، انتهى بهم الأمر قصصًا تحُكى في كتب التاريخ. (يحاول الفيروس الاحتجاج، أقرِّب الرُّؤية، وأنا أنظر إليه شزرًا... يسكت على مضض)، أرجو أن أراك غدًا في حالٍ أحسن.

-إن شاء اللّه.

-شدّ حيلك.

-كلّه على اللّه.

-بالضَّبط، كلّه على اللّه، تصبح على خير.

أخرج من الغرفة وأنا متأكّد بنسبة أكثر من ٩٥٪ أنّ الشَّطيرة كانت شطيرة فول... أعتقد ذلك، نعم. شطيرة فول.

أَمان

لبنى علي صالح

بهلعٍ تتسعُ عيناه، ونظراتهُ تقفزُ كأرنبٍ مذعور... تجوبُ أرجاءَ الغرفة البيضاءِ للمرَّة الألف أو ربمَّا المليون! جَسدهُ المُنهكُ المُلقى على السَّرير؛ مقيَّدٌ بعدد لا يعرفهُ من الأسلاك والأنابيب المتصلة بأجهزة لا تتوقّفُ عن الطنين. عاجزٌ عن نُطقِ أيِّ حرف... أضلاعهُ تُطبقُ على صدرهِ مع كلِّ مُحاولة مريرةٍ لأخذ نفَس؛ تُطبق عليه، وكأنَّها مُصرةٌ على إخراجِ رُوحه وإعلانِ نهايته.

الحُمى تفتكُ بعقله، وتتلذَّذُ بتعذيبه، وهي تجرُّهُ في سيلٍ من خليط الأصوات والوجوه... صورٌ غير واضحة تتلاحقُ مُسرعة أمامَ ناظريه. يرى نَفْسَهُ عابسًا، يحملُ حقيبةَ سفره. تقفُ أمامهُ منى، وأمامها بطنها المنتفخ، يرى رجاءَ عينيها الصَّامتَ له بألاّ يذهبَ ويتركها! وشفتاها تتلفَّظُ ببطء: "أنا خائفة!"... قبل أن تختفي.

يرى نفسهُ ضاحكًا بعبث، وأمامه (بافاريا) الفاتنة، وهي تتباهى بقوامها المشوقِ في ملابسِ السِّباحة، وهي تهمس بدلال: "تعال!" قبل أن تختفي...

ويرى نفسه طفلاً صغيرًا في الثَّامنة من عمره؛ خائفًا ممُدّدًا على سريرٍ كهذا، وصوتُ الطَّبيب يقول: "علينا استئصالُ الزَّائدة الدُّوديّة"، وصورةُ أبيه الحاجَّ عزّ الدِّين وهو يمُسكُ بيده الصَّغيرة، ويربت بيده الحنونة على رأسه، ولسانهُ يَلهجُ بالدُّعاء: "يا أللّه! يا أَللّه أنت الشَّافي"...

قَطعَ سَيلَ الصُّورِ الصَّوتُ المَقيتُ للأجهزة وهي تئنُّ بنغمة عالية مُحذِّرة رَتيبة مُعلنةً عن انتهاءِ حياة! دمعٌ تَعلَّقَ بأهدابِ عينيه يَدعو بصمت: "يا اللّه! رحمتَك... يا أللّه أنت الشَّافي". وهو يرى الطَّاقمَ الطِّبِّيَّ المُتخفي وراءَ طبقاتٍ من الأقنعة والملابس الواقية الذي هَرع نحوَ سريرٍ مُجاور له... يَبذلُ قُصارى جَهده من أجلِ أن يُنقذَ حياةَ الجَسد المُسجَّى أمامه، لكنَ التَّعبَ راحَ أدراجَ الرِّيحِ وها هُم يَأخذونَ الجسدَ الذي فارقَتهُ الحياةُ بعيدًا. عذابٌ أن يَرى يَدَ الموتِ

تحَومُ من حوله؛ فَتَخطفُ في كُلِّ جولة رُوحًا، وتُعلنُ لمن تبقَّى أنَّها سَتعودُ من أجله فيما بعد. عذابٌ من نوع آخر، لا يَقِلُّ قَسوَةً أو ألمًا عن عذاب مرضه. يغلقُ عينيه بشدّة فينزلقُ الدَّمعُ السَّاخنُ على وجنتيه: "رحمتك يا أللّه"، أمَا آنَ لهذا العذاب أن ينتهي! يسمعُ صوتَ الحاجِّ عزّ الدين:

ظَلمتَ يا عبد الرحمن! ظَلمتَ خَلقًا، وظلمتَ نفسك! تَكبَّرت يا عبد الرحمن، وتجبّرت وغَرَّتك الدُّنيا! شبابٌ ومَالٌ ووَسامةٌ. نِعَمٌ تَستوجب الحمدَ والشُّكرَ لا التَّجبّرَ والكِبرَ. يظلُّ يردّدُ لنفسه قبل أن يبتلعهُ الظَّلامُ من جديد.

يفتحُ عينيه بصعوبة. ما يزالُ في كابوسه الذي يَأبى أن يرحمهُ وينتهي. تجَوبُ نظراتهُ المُعذَّبةُ جُدران الغرفة البيضاء. تلتفُّ حوله الأسلاكُ والأنابيبُ التي يَعجزُ عن معرفة عددها أو وَظائفها... القطعةُ البلاستيكيَّةُ الشَّفّافة ما زالت مُلتصقةً بوجهه تَضخُّ الهواءَ دونَ توقُّف إلى جسده؛ تُعينهُ على التّشبُّث بالحياة! لا يوجد أحدٌ بجانبه يواسيه، ولا مُؤنسَ لهُ يَصبُّ في أُذنه كلمات تَشدُّ من أزره... لا شيءَ سوى أصوات الأجهزة التي تَرنُّ وتَطنُّ.

يعودُ ليغرقَ في ذكريات أيَّامٍ قَريبة قادتهُ إلى حَيثُ هو الآن. فلم يَعدْ لديه ما يَتمسّكُ به سوى الذّكريات! خُطواتهُ تمشي واثقةً مُختالة تجَوبُ سطح (بارادايس)... (بارادايس) الباخرةُ ذات الطَّوابق العشرة بغرفها الفارهة، وبعددٍ كبيرٍ من الموظَّفين دائمي الحركة كأنَّهم سربٌ من النَّمل، الغايةُ من وجودهم العملُ على خدمته وراحته، وتملُّقه كلَّما مرَّ بأحدٍ منهم، كما هو الحالُ مع بقيّة الرُّكاب.

(بافاريا) الجميلةُ تختالُ أمامه رمزًا للغواية بملابس السِّباحة... شعرها المَصبوغ باللُّون الأشقر تتخلّله بعض الخصلات البلاتينيَّة المصفّفة بعناية... وجهها مزينٌ بإتقان فخبيرةُ التجميل الموظَّفةُ ضمن طاقم الباخرة مؤهّلةٌ للتّعامل مع عِلية القوم. وعملها لا غبارَ عليه، مثلَ جميع أفراد الطّاقم الذين يقاربُ عددهم الألف مُوظّف؛ مُسخّرين جَميعهم للعملِ على راحة ورفاهيّة الرُّكاب، ورِضاهم غايتهم الأولى والوحيدة.

أشعّةُ الشَّمس التي تتلألأ على صفحة الماء الأزرق في لوحة مُبدعة تضجُّ بالحياة. تَبثُّ الدِّفء في روحه وتُبهجُ قلبهُ وتَدعوه لينهلَ من المُتع المَعروضَة بسخاءٍ من حوله، فلا يتردّدُ في تلبية الدَّعوة ليعيشَ أسعدَ أيَّامِ حياته.

في قاعة السِّينما على ظهرِ (باراديس) جلس بِصحبة (بافاريا) على المقعد الجلديّ الفاخر. وارتدى النَّظارات ثلاثيّة الأبعاد. ليستمتعَ كما قيل له بتجربة لا مثيل لها وهو يشاهدُ أحدث فيلمٍ للممثل الأمريكيّ الشَّهير المُفضل لديه، وهو يقوم بإنقاذ العالمِ...

في الفيلم سِرب من الأجرام السَّماويّة مُتفاوتةُ الأحجامِ تتسابقُ مُسرعةً للاصطدام بكوكب الأرض... المُؤثِّرات والخدعُ البَصريّة لمشاهد الاصطدامات والانفجارات الهائلة وصور الأمواج العاتيَّة النَّاجمة عنها وهي تبتلعُ مُدنًا بأكملها. جُسور تُقتلعُ وناطحاتُ سحاب تتطايرُ. كُلُّ هذه المَشاهد تَدلُّ على عبقريّة المخرج الذي استغلّ باحترافٍ ميزانيّة الفيلم التي تُقدر بمئات الملايين. الآن لو كان قادرًا على الضَّحك لفعل! لضَحكَ؛ ساخرًا بمرارة من جهله وسذاجته! وكأنَّ عالمهُ يحتاجُ لحشد من الأجرامِ السَّماويَة الضّخمة لتَهدمهُ فوق رأسه! ها هو فيروس ضئيلٌ لا يُرى بالعينِ المُجرَّدة يأتي ليبصقُ في وجههِ ويقتحمَ جسده، ويبدأ في احتلالِ رئتيه، ويهدِّد بكتابة نهايته بل نهاية العالم الذي يعرفه!

يا ترى الأموالُ التي خُصصت كي تُغطي ميزانيّة الفيلم كم جهازَ تنفسٍ اصطناعيّ قد تشتري؟!

(بافاريا) تستلقي تحت أشّعة الشَّمس تُريد اللّون البرونزيّ. تُخبرهُ بذلك وهي تبتسمُ، وعينيها مختفية خلفَ نظارتها الشّمسيَّة.

تصلُ إلى أسماعه أخبارٌ تبدو لهُ باهتةً عديمةَ الأهميّة عن انتشارِ مرضٍ ما، وظهورِ فيروس جديد في مدينةٍ ما في الصّين... لا يهتم. ولماذا يفعل؟ العالمُ اعتادَ في كُلّ عامٍ على ظُهور مرضٍ جَديدٍ ينشغلُ به الإعلام بُرهةً من الزّمن، ثمّ تتلاشى أخباره وكأنّه لم يكن. ألم يكن هذا واقع الحال مع إنفلونزا الطيور، وإنفلونزا الخنازير، وسارس، وكورونا الإبل؟! وها هي الحياة تمضي... الشّمس تَسطعُ في السّماء، ولون البحر الأزرق يسحره، و(بافاريا) جميلةٌ جدًّا.

كما تبتلعُ السُّحب السَّوداء الشَّمسَ في يومٍ مُضطرب غَفلت عن تَوقّعه النّشرةُ الجويّة؛ ابتلعت الأحداث المُتلاحقةُ بسرعةٍ لذةَ المُتع من حوله. وأخذت تُطارده لابتلاعِ روحه كوحشٍ مَسعورٍ اشتمَّ رائحةَ دَمه؛ وأصبحت حياتُهَ الفريسةَ التي يسعى لاقتناصها. القلبُ اضطربَ، والنَّفس ضجّت بالرُّعبِ والقلقِ، وانتشر

الفزعُ بين الرُّكاب كما انتشار النَّار في الهشيم. تتردَّدُ الأقاويل من حوله: بعض الرُّكاب يَشكون من حمى شَرسة تفتكُ بهم... هناك على سطحِ السَّفينة رجلٌ مريضٌ بِشدَّة. طبيبُ الباخرة يعلن أنّهُ يحتضر، ويطلب من الطَّاقم الرُّسوَّ بالباخرة في أقرب ميناء؛ يظنّ أنَّ فيروس الـ(كورونا) المُستجدّ قد استوطن الباخرة.

كابوس مرعبٌ ما يعيشه على متنِ هذه الباخرة الفارهة. أيَّام الإجازة التي دفع ثمنها باهظًا وهو يَظنُّ أنَّه يشتري سعادةً لم يَذُقها من قبل؛ استحالت جحيمًا خالصًا وذُعرًا يمَتدُّ ويَتعاظم، وهو يخشى أن يكون اشترى تذكرةً تحمله إلى الموت؛ ليدفع حياته وعمره ثمنًا لهذه الرِّحلة.

الكلماتُ التي تلتقطها أُذناه من هنا وهناك بلغات مُختلفة، لكنّها تحَملُ ذات المعنى: لا مَجال لأنْ ترسو الباخرة! كلُّ البلدان التي تَواصلَ الطَّاقم معها؛ كان ردّها قاطعًا بالنَّفي.

فأيُّ دولة تلك التي ستسمح بجلب الهلاك إلى شعبها بعلمها وإرادتها! يا لها من سخريَّةٍ مريرة! الباخرةُ التي تتزيَّن بعنوان يمُثّلُ حياة السَّعادة الأبديّة؛ تستحقُّ عن جدارة لقبَ (باخرة الهلاك)!

(بافاريا) عيناها ذابلتان، وشعرها أشعثُ مُبتلٌّ بالعرق. لا تستطيعُ النهوضَ من السَّرير؛ تهذي من الحمى ووجهها أحمرُ اللَّون وساخن. تبدو وكأنَّها تُصارعُ من أجلِ التقاط أنفاسها.

تَوضَّأ وصلَّى كما علَّمه أبوه الحاجّ عزّ الدّين، وكما لم يفعل منذ زمن!

ما يزال جالسًا على الأرض بعد أن أنهى صلاته، يهمسُ: "لا إله إلاّ أنت سبحانك، إنّي كنت من الظالمين! يا أرحم الراحمين، اكتب لنا النَّجاة؛ برحمتك يا أللّه".

هائمٌ حبيسٌ على متن الباخرة التي سُمح لها أخيرًا أن ترسو. لكن لم يُسمح لأحدٍ من الرُّكابِ بالمغادرة. فريقٌ طبِّيٌّ متخصَّص جاء ليصطحب فقط أبناء جلدته ويعود بهم إلى دولتهم. أخذوا (بافاريا) معهم، وأنت يا عبد الرحمن من سينتشلك؟ من سينجيك؟

منى تظنّ أنّه في رحلة عملٍ مهمّة، لم يستطع أن يُوكِل بتفاصيلها إلى أحدٍ من موظَّفيه. وإلاّ بلا شكٍّ كان ليبقى معها! كما أكّد لها، كيف لا يفعل وهي

التي قد تلد في أي لحظة! لقد تجاوز موعد عودته المفترض؛ أخذ يتجاهل اتّصالاتها المستمرّة، ولا يردُّ على رسائلها التي تتوالى منذ الصَّباح على هاتفه! قلقةٌ هي لا ريب؛ ترتجي سماع صوته والاطمئنان عليه... لكنّه خائفٌ! مذعورٌ من احتمالِ أن يُكتَشف كَذبهُ وخداعه! "يا ألله! يا ألله العون! يا ألله رحمتك! يا ربِّ أرجو فَرَجك وعَفوك". لا يستطيعُ تحمُّلُ فكرةِ أنّها قد تُدرك حقيقة سفره! لا يستطيع تحمُّلُ فكرة أن يخسرها!

في الآونة الأخيرة أساء لها كثيرًا. تذمّر منها، من شكلها أثناء الحمل ومن ضجيج صغيرتيه هَنا ولين، ومن واقع أنّ فتاة ثالثة قادمة في الطريق!

أمواله التي تتكدس بجهده ونجاحه وعبقريته التِّجاريَّة، إلى من ستؤول من بعده؟ حَملٌ ثالثٌ وما زالت عاجزةً عن إنجاب وليِّ عهد له؛ أجل، بكلِّ غباءٍ هو ناقمٌ عليها لهذا السَّبب! أجل، بكلِّ تجبُّر وظلم يعلن أمامَ نفسه أنّ من حقّه أن يستمتع بماله قليلاً وبشبابه! كي يسرِّي عن نفسه ويخفِّف من آثار فشلها وإخفاقها! هو لن يؤذي أحدًا! (بافاريا) جاءت معه برضاها، وسيحرصُ على أن تغادر وهي أكثر من راضية. وزوجته لن تعلم شيئًا؛ "ولكنَّ الله يعلم يا عبد الرحمن!" صوت الحاجّ عزّ الدّين يهمسُ في عقله بعتب؛ لكنّه يتجاهله ويتظاهر بأنّه لم يسمع شيئًا.

وجه أخيه عبد الله ينظر إليه بشكٍّ وحيرة، وهو يعلن أمامه أنه سيسافر إلى أثينا. وسيغيب أسبوعين من أجل دراسة فرص استثماريَّة، فربمَّا يكون هناك مجال من أجل توسعة أنشطة الشركة التِّجاريَّة هناك. الحيرة لا تفارق نظرات (عبد الله) لكنَّه يسكت ولا يتفوَّه بحرف.

صورة صغيرتيه: هَنا ولين، وهما تضحكان وتركضان فرحًا. هَنا تهتف: "سنسمّيها فلفولة مثل الدُّمية"، لين تعترض بشدّة: "لا... لا! سنسمّيها شوكولاتة! أنا أحبّ الشّوكولاتة! أحبّها كثيرًا! إنّها لذيذةٌ، وحلوةُ المذاق!"... تضحك منى برقّة قبل أن تخفت ضحكتها، وهي تنظرُ نحوه بحذرٍ وترقّب. وتسألهُ بصوت هامس مغلّف بلمحة من رجاء: "وأنت يا عبد الرحمن؟ ما رأيك؟ ما الاسم الذي تحبّه؟"، لكنّه لا يهتمّ ولا يرحمها! يختصرُ كلّ تذمّره في جملة بغيضة: "اختاري أنتِ الاسمَ الذي تريدينه!"، ويمضي مبتعدًا عابسًا متذمّرًا من خبر قدوم بنت ثالثة إلى أُسرته.

متذمّرٌ من بطن زوجته المنتفخ، ومن شعورها المتزايد بالتّعب! ومن انشغالها بصغيرتيه! حججٌ واهيةٌ! هو أراد (بافاريا)! كما أراد الكثيرات غيرها من بعدها! اغترّ بنفسه! شابٌّ في عزّ قوّته وصحّته ونجاحه ما الضَّير من التَّنعُّم قليلاً بمباهج الحياة! إنَّها حريَّته الشَّخصيَّة وهو لا يؤذي أحدًا!

حلقه يلتهبُ بنيران الألم! قبل أيَّام قليلة كانت أصناف الخمر التي تلهبه في ملهى الباخرة، وعيناه ترقصان، وهما تراقبان أجساد الفتيات المتمايلة، تتراقص بدورها تحت أضواء الكرة اللاَّمعة التي تتدلَّى من سقف المرقص. تلسع الخمر حلقه، قبل أن تشقَّ طريقها إلى جوفه، ومن ثمَّ إلى عقله؛ فتجعله خفيفًا مُتحرِّرًا من أيّ تفكيرٍ أو ندم!

قلبهُ يئنّ بالوجع. هل أنجبت منى؟ هل هي بخير؟ وماذا عن المولودة؟ من أخذها إلى المشفى؟ من أمسك بيدها وهي تعاني آلام المخاض؟ من سيرعى لين وهنا؟ هل طال الحجر مدينتهم؟ هل أخذ شقيقه عبد الله الفتيات إلى بيته واهتمّ بهنّ؟ هل يعقل أن يتخلّى عنهنّ؟ كما... كما فعل هو! كما تخلّى هو عن صغيرتيه! ماذا أسمت الصّغيرة؟ هل سيراها؟ هل سيعلم ما اسمها؟

(كأنَّه يصَّعَّدُ في السّماء)! ما أدقّهُ من وصف! الهواء من حوله مجانيٌّ لكنّ العلَّة فيه! يعجز عن نيل شيءٍ منه إلا من خلال هذا الجهاز... لطالما كانت العلَّة فيه!

كان لديه كلُّ شيء... زوجة ودود، وعائلة محبّة، وعمل ناجح؛ بل ناجح جدًّا، وصحّة، وشباب، ووسامة، وطفلتان فاتنتان! لقد ملك الدُّنيا بين أصابعه! لكنَّه كفر بِكلِّ ذلك!

يصدح صوت أبيه الحاجّ عزّالدّين الرّافعيّ إمام المسجد في قرية عين الغزال، بثوبه الأبيض ودرس كلّ يوم إثنين بعد صلاة العشاء: "أيوب صبر وما تذمَّر، ونادى ربّه: إنِّي مسَّني الضُّرُّ وأنت أرحم الرَّاحمين؛ فاستجاب له الرحمن!"... وبصمت يناجي ربَّه: "ربِّ إنِّي مسَّني الضُّرُّ وأنت أرحم الرَّاحمين. غفرانك ربِّي!".

السَّرير ذاته، الجدران البيضاء ذاتها! أصوات الأجهزة تطنُّ وترنُّ من حوله، تتَّسع عيناه دهشةً فرحةً؛ إذ اكتشف زوال القطعة البلاستيكيّة الشّفّافة التي التصقت بوجهه فترة طويلة. ما يزال يتألّم، لكنَّه يستطيع التَّنفُّس أخيرًا؛

يستطيع أن يُدخل الهواء إلى رئتيه! يا أللّه! لك الحمد والشكر على نَفَسٍ... أخذ ملايينًا مثله في عمر مضى، ولم يحمدك مرَّة عليهم!

عمر جديدٌ وبدايةٌ جديدةٌ وصفحةٌ جديدةٌ، أقسمَ أنَّهُ لن يلوِّثها! لن يتذمَّر! ما زال ضعيفَ الجسدِ ومُنهكَ الرُّوح وأكثر جُبنًا من أن يُواجه! لم يجرؤ على الاتَّصال بأحد. لا منى ولا أخيه. لم يتصلّ بأحد! ما إن يستقرّ في وجهته بعد خروجه من المستشفى؛ حتّى يفعل، أمَّا الآن فلا يستطيع! فهو يرى الموت في كلِّ شيء حوله، يراه في الطائرة التي أُرسلت لإجلاء أبناء وطنه، وينطق الشَّهادتين مرَّات يعجز عن حصرها، وجسم الطَّائرة يهبط أخيرًا على ثرى وطنه! يرى الموت حوله في الجنود المدجَّجين بالسِّلاح وهم يقومون بتنظيم مسار الرِّحلة من المطار نحو مبانٍ تمَّ تخصيصها من أجل قضاء فترة الحجر! يرى الموت في جسيم ضئيل يعجز المرء عن رؤيته!

بعد أن ظلَّ حبيس المشفى طريح الفراش قرابة الثَّلاثة أسابيع؛ ها هو أسير حبس جديد، حبس من نوع آخر، في مخيَّم على الحدود أقيم على عجل؛ عليه أن يظلَّ رهينه أسبوعين على الأقلّ، سجن جديد؛ لكنَّه على الأقلّ يستطيع التَّنفُّس واقفًا على قدميه! اللَّهمَّ لك الحمد!

الغرفةُ بسيطةٌ جدًّا، وفقيرةٌ بالأثاث والألوان. فاللَّون البنيُّ يَشمل السَّرير الخشبيَّ، وبجانبه الطاولة الخشبيَّة الصَّغيرة والكرسيُّ الوحيد، ويمتدّ ليشمل جدران الغرفة أيضًا، لونٌ كئيب وغرفة كئيبة؛ لكنَّه لا يتذمَّر، حتَّى على الوجبة التي اقتصرت على بيضة مسلوقة وحيدة، وبضع حبَّات من الزَّيتون، وشرائح من الخيار والطَّماطم، ورغيف من الخبز الأسمر، وزجاجة مياه.

حسم أمره ورغم ذلك كانت أصابعه ترتجف بعد أن تجرَّأ أخيرًا وضغط أزرار هاتفه. دقَّات قلبه تتسارع، وهو يتخبَّط في هواجسه، وقلقه يتزايد، وهو يعيد المحاولة تلو الأخرى؛ ليسمع نفس الجملة المقيتة تتردَّد بذات النغمة الرَّتيبة الآليَّة: "رقم الهاتف المطلوب لا يمكن الاتَّصال به. يرجى المحاولة مرَّة أخرى، وشكرًا"... "يا أللّه احفظهم لي يا ربّ!".

حبيسٌ مرَّةً أخرى، تفتكُ المخاوفُ بروحه، ماذا حدث لزوجته؟ هل وَضَعَت؟ هل هي بخير ومولودتها؟ أين لين وهنا؟ من يَهتمُّ بهما؟ لماذا لا يمكن الاتَّصال

بهاتفها؟ إنَّه محبط؛ لأنَّه عاجزٌ عن الحصول على كلمة واحدة تجلب الطمأنينة إلى قلبه الوجل...

-"عبد اللّٰه! عبد اللّٰه!"...

تعاود أصابعه المرتجفة الضَّغط على مجموعة جديدة من الأزرار. وينتظر بلهفة وهو يسمع صوت الجرس الذي توقَّف سريعًا، وحلّ مكانه صوت شقيقه يصرخ منفعلاً: "عبد الرحمن! هل هذا أنت حقًّا؟" بصعوبة تمالك نفسه وأخرج صوتًا ضعيفًا:

"كيف حالك يا عبد اللّٰه؟" صوت أخيه يجهش بالبكاء؛ دفعه لينهار هو أيضًا، كلمات تتمتم بالحمد للّٰه، استطاع أن يميِّز سماعها بصعوبة.

مرَّت لحظاتُ صمت قليلة قبل أن يستطيع شقيقه التَّوقُّف عن البكاء ثمَّ ينفجرُ صوته يعصف بكلمات غاضبة: "أين أنتَ أيها الوغد، كلُّ هذا الوقت؟ لقد أصابنا الجنون قلقًا على سموّك! هل تعرف كم مرَّة زرتُ السَّفارة اليونانيَّة من أجل الحصول على معلومة واحدة عنك! أو على أيِّ خبر يبعث في نفوسنا الطَّمأنينة بشأنك!؛ حتَّى طُردت ومُنعت من الاقتراب من بوابتها! بعد أن أقمتُ الدُّنيا ولم أقعدها في آخرة زيارة، وهم في كلّ مرة يؤكِّدون أنَّك لم تدخل الأراضي اليونانيَّة! كيف استطعتَ أن تفعل بنا هذا؟ لقد كدتُ أُجنُّ! ألم تفكِّر بابنتيك؟ ألم تفكِّر بزوجتك الحامل؟ أقسم باللّٰه كدتُ أُجنُّ! ومنى المسكينة..."

قاطعه بلهفة: "هل ولدت منى؟ هل هي بخير والصَّغيرات؟"

لكن لم يجد إجابة سوى صمت قاتل. أخذ يهتفُ بعجزٍ يناديه ويكرِّر النِّداء: "عبد اللّٰه... عبد اللّٰه"؛ لكن دون جواب! لا فائدة! لقد انقطع الاتَّصال؛ فقد فرغت بطارية الهاتف!

يصرخ مُحبَطًا، وينخرطُ في بكاء أدمنه قبل أن يتمالك نفسه، ويهرع ليفرغ حقيبته؛ يبحث بين ما تناثر منها عن شاحن هاتفه.

بعد بضع دقائق بالكاد أضاء هاتفه من جديد معلنًا عن وصول تيار كهربائيّ إلى جوفه. ما يزال الهاتف متعلِّقًا بالسِّلك المتَّصل بالمفتاح الكهربائيّ على الحائط عندما أخذ يهتزّ ويرنّ بإلحاح مستمرّ، واسم شقيقه عبد اللّٰه يظهر على شاشته... ضغطَ على زرّ الإجابة، وانهمرت الكلمات من أخيه كالشّلال الهادر:

"عبد الرحمن أين ذهبت؟ أين أنت؟ ما الذي حدث؟ تكلّمْ باللّه عليك! هل أنت بخير؟ لماذا قطع الاتَّصال؟"

تنهَّد عبد الرحمن وهو يقول: "أنا بخير يا عبد اللّه، لا تقلق. لقد فرغت بطاريَّة الهاتف فقط"

بيأس أخذ يستحلفه: "باللّه عليك أين أنت؟ لِمَ لا تعود إلى بيتك وبناتك وزوجتك ولي؟"

أجابه بحزن: "لا أستطيع! ليس بعد"

بنفاذ صبر سأله: "لِمَ لا؟ ما الذي يمنعك؟ أين أنت الآن؟ سآتي إليك ولن أعود إلا بك! بربِّك لا تُخفِ شيئًا عنّي!"

باستسلام أخذ يبوح لأخيه: "لن أفعل! لن أُخفي شيئًا. أنا في المخيّم الذي أقامته الدَّولة من أجل إقامة العائدين خلال فترة الحجر التي لن تقلّ عن أسبوعين... أنا لم أذهب إلى اليونان... أنا كنت على متن الباخرة (بارادايس)، لا بدّ أنّك سمعت عنها وتعلم بشأن..."

قاطعه مصدوما بما يسمع: "ما الذي تهذي به؟ تلك السفينة الموبوءة! هل تعني أنّك..."

أعلن له عبدالرحمن: "لقد كنت في المشفى أتعالج من إصابتي بالمرض. لقد أصبت بفيروس الـ(كورونا) المستجدّ"

صمتٌ ساد من حوله تقطعه تمتمة خافتة تصله بصوت أخيه: "يا إلهي! يا إلهي!"

يتمالك نفسه ويسأله: "هل أنت بخير الآن؟"

يجيبه: "أنا بخير! الحمد للّه لقد شُفيتُ، وأنا بخير"

باندفاع غاضب يلومه: "كان عليك أن تخبرنا! لماذا لم تتّصل؟ لماذا تركتَنا فريسة الشُّكوك والمخاوف؟"، عجز عبدالرحمن عن الإجابة؛ كيف يخبره أنّه كان أكثر جُبنًا من أن يواجه أحدًا بحقيقته! كان خجلاً مُنغمسًا في شعوره القاتل بالعار! ذلك الشعور الذي لا يقلُّ فتكًا عن خبر إصابته بالمرض.

أخذته أفكاره إلى اللَّحظة التي ساقه فيها الرِّجال المختفون خلف البدلات البيضاء الواقية والخوذ بعد أن أظهر الفحص نتيجة إيجابيَّة. لكنَّه كان قد علم

بالفعل أنَّه التقط العدوى. جسده كان قد بدأ بإرسال الإشارات، حرارته الآخذة بالارتفاع، والألم في حلقه، وفقدانه حاسّة الشّمِّ والخوف الذي ملأ قلبه!

أعادته كلمات أخيه إلى الحاضر بسرعة: "ماذا أفعل؟ هل أستطيع الحضور إليك؟ ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟ هل أُرسل نقودًا؟"

ابتسامة باهتة ارتسمت على وجهه الشَّاحب وهو يقول: "أخبرني عن منى والفتيات أرجوك!"

لا يكادُ يصدق عينيه وهو يتأمَّل الجسد الصَّغير الملتفَّ بغطاء أمامه. الغطاء ورديٌّ مزيَّن بفراشات صغيرة فضيَّة. لحنٌ عَذْبٌ على أُذنيه، وَقْعُ ذلك الصَّوت الضَّعيف الذي يصدر عن هذا المخلوق الجميل! وحقيقة أنَّه أوشك أن يفقد حياته قبل أن يُكحّل عينيه برؤية هذه الفاتنة ما زالت تؤلمه بشدَّة!

صوت ضحكات يتعالى ينبّئه بقدوم العاصفتين الصّغيرتين هنا ولين، ويجلب ضحكة صغيرة إلى شفتيه، وهو يستقبلهما فاتحًا ذراعيه؛ فتقفزان بسرعة وقوَّة دون تردُّد. ولولا ثبات قدميه بالأرض لكان طريح الأرض كما حدث من قبل.

صوت منى يعلن عن تذمُّرها، وهي تطالبهم بترك غرفة الرَّضيعة، والكفِّ عن إزعاجها؛ حتَّى تستطيع النَّوم قليلاً... يلتزم بالأمر فورًا رغم اعتراض الفتاتين؛ يخرجهما، ويهبُّ واقفًا على قدميه يطوِّق زوجته بذراعيه ويحتضنها وهو يقبِّل رأسها، بينما تستكين بين ذراعيه وهو يهمس في أُذنيها: "لم أخبركِ كم أحببتُ الاسم الذي اخترتِه! (أمان) إنَّه جميل جدًّا! مثلك جميلة ولا يصدر منك سوى كلِّ جميل!".

ترفع رأسها نحوه وهي تقول: "وأنا أقاسي آلام المخاض دعوتُ اللّه كثيرًا أن يرحمنا وأن تكون في أمان وأن يعيدك لنا سالمًا"... نظرات منى لا تخلو من الحزن والعتب ومسحة من الغضب، بالطَّبع القصص الملفَّقة التي ثرثر بها عبد اللّه أمامها من أجل أن يبرِّر غياب أخيه ومرضه لم تقنعها، ولا ريب أنَّها أيقنت أنَّ وراء الأكمة ما ورائها، كما يقولون، لكنَّها تمسَّكت بحقيقة أنَّ اللّه ردَّه سالمًا لها ولصغيراتها.

كما تمسَّك هو بحقيقة أنَّ اللّه غفور رحيم؛ منحه فرصة ثانية وردَّه إلى سواء السَّبيل؛ استحضر من ذكريات طفولته كلمات كثيرة كان أبوه الحاجّ عزّ

الدّين يردِّدها على مسامعه، يهتف قلبه نادمًا على ما مضى: "حفظتُها يا أبي ونسيت أن أُردّدها! غفرانك ربِّي! إنَّك غفورٌ رحيم".

مَرَايِم

حياة الياقوت

عيناها عربيَّتان جدًّا؛ سوداوان، نجلاوان تبرزان من وراء الكِمَام الطبيّ الأزرق. تذرع المكان بعينيها، تتأمّل بتوتّرٍ الرائح والغادي في بهو الفندق الفخم في برمنغهام. كانت تودّ لو تزور هذه المدينة من قبل؛ كانت تودّ لو ترتع في مصنع كادبوري للشوكولاتة، لو تجول في المتاحف العتيقة، لو تطوف بمصانعها الشهيرة. أجل، كان على طالبة تحضّر الدكتوراه في الهندسة الصناعية أن تزورها منذ أمد طويل.

فخامة الفندق تُشعر (مرايم) بالاختناق؛ هذا البهو العابق بشذى الزهور الطازجة، شذى لا يمكن الاستمتاع به من وراء الكمائم التي تغطي وجوه معظم الموجودين المرتعشين من الـ(كورونا). الريبة تُكهرب الأجواء؛ صار التأكد من حفظ المسافة بين المرء ومن يليه طَقْسا آليًّا، والمرور بالمضخّة البلاستيكيّة المعبَّأة بمطهّر اليد ديدنًا طوعيًّا، كمَن يمرّ عبر بوابة التفتيش الآلية في المطار.

كان من الآمن لها أن تظلّ في غرفتها، لكنّ القلق الذي يعصف بها أخرجها. منظر الناس -وإن كانوا غرباء- يعطي الإنسان شعورًا أنّه ليس وحده في هذه الدوامة المفزعة.

أيٌّ جنون هذا الذي دفعها لتركب القطار من لندن إلى برمنغهام، وتقيم وحيدة في فندق، على أمل الحصول على مقعد في طائرة؟ "مقعد على قائمة الانتظار، هذا ما يسعني أن أعدَك به"، هكذا أخبرها موظّف الحجوزات. لا تصدّق أنها وخلال يومين ستكون مرّت بخمس مدن: لندن، برمنغهام، باريس، الدوحة، الكويت. هذا إن نجحت خطتها.

تتعرّق يداها، وهي تقرأ سيل رسائل الواتساب المليئة بالأنباء، والتحذيرات، والإشاعات، والنكت... النكت التي لا يمكنها أن تضحك عليها... "نظريّة غبيّة! هذا جنون!"؛ يقطعُ شرودَها ثرثرةُ موظّفي الفندق الصاخبة. يبدو أنّ شيئًا

أغضبهم؛ حتى علا صوت نقاشهم. ينسيها فضولُها قلقَها، تُصيخ السمع، فتعلم أن الحكومة البريطانية تنوي تطبيق نظرية (مناعة القطيع)؛ تنوي أن تسمح للفيروس أن يغزوَ البلاد، فيُميت الضعاف والهَرمين، ويمرُّ بالأقوياء ليزعجهم قليلاً، ثم يتركهم محصّنين بالأجسام المضادة. معالجة جميع المصابين تعني أن النظام الصحيّ سينهار عاجلاً أم آجلاً.

"فلنذهب فداءً للقطيع. نموتُ ويحيا نظامُ الخدمات الصحية!" يقول جون بتهكّم.

"هوّن عليك يا جون! مناعتك تبدو لي ممتازة." تقول إحدى الموظفات لزميلها جون المسنّ الذي بدا مرتاعًا ملتاعًا من النبأ. يمكن لمرايم -وفي الجالسة على مَبْعدة- أن ترى لمعان غلالة من الدموع في مُقلتيه. تشعرُ بالأسى على المُسنّ المسكين، إنسان في عمره يجب أن يُكرّم لا أن يُترك لتنتهبه المخاوف. أثمن الأشياء تلك المعتّقة؛ دهن العود، السجّاد العجمي، التحف، الجبن. فكيف لا يشمل هذا الإنسان لدى قوم يشترون النبيذ المعتّق بأغلى الأثمان؟!

وجه جون المليء بالغضون يذكّرها بجدّتيها؛ مريم، ومريم. أيُّ قدَر هذا الذي جعل جدّتها لأبيها تدعى مريم، وجدّتها لأمّها كذلك. مَن يعلم هذا لا يستغرب أن يختار لها أبواها اسم (مرايم). زُرقة عيني جون ذكرتها بجدّتها لأّمها... اسمها الحقيقيّ(مَنَانَا)، وليس مريم، لكن جدّها اختار لها هذا الاسم حين تزوجها. كان في زيارة في إلى الاتحّاد السوفييتيّ، وتحديدًا جورجيا لغرض التجارة، "وحين رأيتُها أوّل مرّة، عرفتُ أنّ هذه ستكون أمّ أبنائي"، هكذا كان يقول جدّهم دائمًا.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

"آه، لا إله إلا اللّه!" تزفر امرأة وهي تجلس على الأريكة المجاورة لمرايم في بهو الفندق. يلفتها الكلام العربي، فتنظر صوبها بتلقائية. تتبادل عيناهما النظرات الوديّة، في حين تختفي بقية ملامحهما خلف الغلالة الزرقاء.

تستشعر المرأة ضيقَ مرايم، فتبادرها بالحديث:

- أنتِ هنا منذ زمن؟

- اليوم والله وصلت.
- وحدك؟
- نعم.

لهجة المرأة الخليجية، والتعاطف البادي في عينيها حينما عرفت أنّها وحيدة يُشعر مرايم بالارتياح. تستأنس، فتسترسل:

- أدرس في لندن. جامعتي قررت الاعتماد على التعليم الإلكترونيّ، والـ(كورونا) تستشري في كلّ العالم، فقرّرت أن أعود إلى الكويت.
- ولماذا أنت في برمنغهام إذن؟
- حاولت العثور على حجز من لندن إلى الكويت، ولم أفلح. ثم نصحتني زميلتي في السكن الجامعي أن أبحث في حجوزات الطيران في مطارات المدن التي يمكنني الذهاب من لندن إليها بالقطار مثل: برمنغهام، ولوتن، وبريستل. وبالفعل وجدت حجزًا من برمنغهام، لكنني على قائمة الانتظار. مغامرة لعلّها تنجح.
- أما أنا فقد أتيت هنا للسياحة مع زوجي وطفلينا، كان من المفترض أن نغادر بعد عشرة أيام، لكن استعجلنا العودة أيضًا. الوضع مقلق، خاصة لمن معه أطفال.

يقطع حديثهما نادل الفندق الذي يرتدي قفازات كتلك التي يرتديها الجرّاحون: "سيدتاي، أتودّان منّي أن أحضر لكما شيئًا من مقهى الفندق؟" تهزّان رأسيهما بالنفي.

- لكن أخبريني، لماذا نزلت في هذا الفندق؟ كان يمكنك أن تأخذي القطار القريب من موعد رحلتك وتتوجهي من محطة القطار إلى المطار مباشرة.
- لا أدري ما الذي حلّ بي! خشيتُ أن تتوقّف حركة القطارات، أن تغلق المدن أبوابها في وجه بعضها بعضًا. فأتيتُ هنا فورًا. هذا الحجز غير المؤكّد هو أملي الأخير بكل معنى الكلمة. فيوم غد الثالث عشر من مارس هو آخر يوم لاستقبال الرحلات التجارية في مطار الكويت، بعدها ستُغلق الكويت حدودها!
- أعانك الله! متى تغادرين؟
- الليلة، في الواحدة والثلث فجرًا. لكن هذا إذا غادرت!

تأخذ مرايم نفَسًا عميقًا وكأنها تستعد لتبسيط قصة مُحزنة جدًّا:

- خط سير رحلتي غريب جدًّا؛ سأذهب من برمنغهام إلى باريس، ثم سآخذ رحلة أخرى إلى الدوحة، وثالثة من الدوحة إلى للكويت... الرحلة الأولى من برمنغهام إلى باريس هي التي وُضعت فيها على قائمة الانتظار، أمّا الرحلتان الباقيتان؛ فمؤكّدتان.

تتذكر مرايم مشكلتها العويصة؛ فتقول للمرأة، وهي تزفر:

- قد أبقى هنا لوقت طويل. ما زلت على قائمة الانتظار. أنا قلقة.

تتبسم المرأة، يتضح هذا من الغضون البادية حول عينيها، ثم تقول لمرايم:

- ألا بذكر اللّه تطمئن القلوب. العالم كله يدرك اليوم أنه ليس له إلا اللّه. قد تكون هذه المصيبة التي تضعنا على جادّة الصواب.

تتفكر مرايم في قول المرأة التي لم تسألها حتى عن اسمها، ثم تتفاجأ بها وقد اختفت كغيمة صيفيّة عجلى.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

في غرفتها في الفندق، تتعب مرايم من معاقرة هاتفها انتظارًا لاتصال أو رسالة تبشرها بتأكيد الحجز. تشعر بحاجة فجائية إلى الخروج. تجابه مخاوفها من المرض بأن تهاجمه في مظنّته. أيّ مكان أزحم في هذا الوقت من محلّ بقالة؟ جوعها أيضًا يُجيؤها إلى المكان عينه.

تذهب إلى جون، الشيخ الودود الذي يعمل بوّابا للفندق. البوّاب أو الـ(كونسييرج) مهنة لا بأس بها على عكس ما تبدو لأول وهلة. البوّاب هو الصديق الأول للزائرين، هو جالب سيارات الأجرة، مستودع الحقائب والأمانات، مصدر المعلومات الثمينة لا يعرفها إلا الراسخون في المدينة.

بدا جون لطيفًا، كأي جدّ حنون يستحقّ أن يُقبّل رأسه، لا أن يُضحّى به؛ لأن فردًا عمره الإنتاجي أطول يستحق أن يمنح الفّرصة في الحياة عوضًا عنه. أي شِقْوَة هذه أن يُعامل الإنسان كالآلة، أن يُقاس بالكمّ لا بالقيمة.

- من فضلك. ما أقرب بقالة هنا؟

- هناك فرع لسينزبريز على مبعدة دقائق، في شارع برندلي بليس.

- شكرًا جزيلاً.

- أجزم بأنّه مزدحم. إن لم تكوني مستعجلة، يمكن للفندق أن يرسل أحدًا للتبضّع نيابة عنك.
- لا تقلقْ، أشعر بأنني بحاجة لاستنشاق بعض الهواء.

بدتْ عبارتُها الأخيرة نافرة. من يريد استنشاق الهواء في ظرف مثل هذا؟! تستدرك مرايم:

- أعني، لا أحتاج إلا لبضعة أشياء. فلا داعي للإثقال على أحد.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

تمشي وهي تشدّ كِمَامها على وجهها، كفارس ملثّم يتقي غبار المعركة. وجه جون يلتصق بذهنها لسبب لا تعرفه. لا بدّ أن هذا لأنّه يذكرها بجدّتها لأمّها، (ماما مَنَانا)؛ كما تسمّيها هي وإخوتها. كانوا يتذّرعون بأنهم مضطرون لمناداتها باسمها القديم كي لا يخلطوا بينها وبين جدّتهم لأبيهم. وكانت (ماما مَنَانَا) مسرورة بهذا، فما أعسر أن يغيّر الإنسان اسمًا ألفه طويلاً.

تتذكّر كيف تتنازعها المريمان. ورثت عن إحداهما عينيها العربيّتين الواسعتين، وعن الأخرى بشرتها الأوربيّة. تتذكر حينما كانت طالبة في الثانوية وهرعت لـ(ماما مريم) تشكو لها قلقها من الاختبارات؛ "معلّمة الرياضيات هذه تكرهني أنا وصديقاتي."، "يقولون هناك أسئلة من خارج المنهج"، "لمْ يعطونا وقتًا كافيًا للدراسة"، وتهذر بمخاوفها لجدّتها التي كانت تستمع إليها، ثمّ تقول باطمئنان قريب من البرود:

- ليس لك إلا الدعاء.

لم يكن الردّ يعجب مرايم التي كانت تتوقع تأكيدات عاطفيّة من جدّتها، كأن تشاركها التذمّر من المعلّمة التي تنغّص عليها حياتها، أو تلعن مسؤولي وزارة التربية. فتردّ على جدّتها:

-مام مريم، ادعي لي.

-ولماذا لا تدعين لنفسك؟

-ليس عندي وقت. ادعي لي. أرجوك.

-حسنا. أدعو اللّه أن يلهمك الدعاء، ويقضي حوائجك به.

-ماما مريم!

-وتذكري هذه العبارة: اللّه لا يُجرّب.

كانت مراهقة ثائرة، تشعر بأن الدعاء ترياق لا تحضّره إلا العجائز. لا تعلم كيف لَبَدَ في ذهنها أنّ الدين نشاط يلائم المسنين، ولا يليق بالشباب! انتظرت بفارغ الصبر الاجتماع الأسبوعي لأهل أمّها لتجرّب حظّها مع (ماما مَنَانَا)!
-ماما منانا. ادعي لي.

-ماذا؟

-حتى أنجحَ في الاختبارات.

-ولماذا لا تدرسين؟

-سأدرس. لكن ادعي لي حتى أُوفّق.

-هراء! توقفي عن تضييع وقتك على الهاتف تثرثرين مع سارة وبشرى وادرسي!

فاجأتها المريمان... كلٌّ بطريقتها. وهي التائهة بينهما منذ سنوات طويلة. هي المتأرجحة بين سواد الأحداق وزرقتها، بين صوت القلب وصوت العقل، بين الروح والمادّة. لم تتذكّر موقفها مع جدّتها إلا حين نصحتها المرأة التي التقتها في بهو الفندق أن تيمّم وجهها شطر اللّه.
تنعطف، ترى فرع سينزبريز أمامها. يثبّطها الزحام لأوّل وهلة عن عزمها الدخول، لكن انتظام الطابور وسرعة حركته تشجّعها. تمسك هاتفها تتسلّى به. تتذكر عبارة (ماما مريم)، عبارة لم تفهم معناها رغم أنها ظلت في ذاكرتها؛ "اللّه لا يُجرَّب". تكتب مرايم العبارة في (غوغل)؛ وتقرأ ما ورد في شرح معناها:

"إذا طلبتَ منه، فلتستيقنْ نفسُك الإجابة، وإلا فلا تطلبْ منه. اللّه ليس ميدانا للتجارب. إجابته لك مضمونة، بقدر ما تضمن أنت إيمانك أنّه يقدر، وأنّه سيفعل."

يتحرّك الطابور سريعًا... تتمشّى في البقالة، علّها تعرف ماذا تريد أن تشتري. نفسها تستصرخها شراءَ شيء يذكّرها بالشرق. تذهب إلى ركن الأطعمة الجاهزة، تبحث عن طبق فلافل مع سلطة، أو حمص بالطحينة، أو ربما تبولة. لم يمضِ وقت طويل على تناولها وجبة شرقية. إذ فور نزولها من القطار في برمنغهام ظهر اليوم، ذهبت إلى مطعم كومبتوار ليبانيه الموجود في المحطة الشاسعة والتهمت وجبة عربية دسمة. نَحنّ للوطن حينما نكون بعيدين عنه، وحين نكون فيه نُشبعه نقدًا وجلدًا. في الغربة نتذكّر، وفي الحضور نتذمّر. هذا ديدن الإنسان، يزهد فيما لديه.

تظفر مرايم بعلبة حمص بالطحينة من النوع العضوي. في الكويت يسميها صغار العائلة (خالتي مرايم أورغانك)؛ لهوسها بالطعام العضوي. كيف تشرح لطفل صغير أنّ هذا الطعام ليس مجرد صرعة، بل هو حق للإنسان؟ هو طعام الإنسان المعتاد والطبيعي منذ قرون... طعام خالٍ من المواد الكيميائية، والهرمونات، والمضادات الحيوية، والأسمدة المصنعة، والتعديل الوراثي. هذا قبل أن يتمكن الإنسان الجشع المتكالب على ملذاته من العبث بالطبيعة ليأكل اللحم والدجاج ويشرب اللبن كل يوم، ثم يمضي شيخوخته يتعالج من فَعلته هذه. تمسك مرايم بعلبة الحمص وهي تستمع لسيدتين تملآن عربتيهما بالطعام المثلّج وتتذمران:

- نوع الخضار المفضل لدي نافد.
- نصيحة، لا تنتظري، خذي غيره. لا تعرفين ما قد يحدث غدا.
- أنتِ على حق. تقرير جون لويس الأخير يقول: "إن مبيعات الطعام المجّمد ارتفعت ثلاثة أضعاف"...

تكدّس السيدتان الخضار المجمّدة، والبيرغر، وقطع الدجاج المتبّلة، والبيتزا، والفطائر، والوجبات الجاهزة المجمّدة، والمثلّجات. تمحض إحداهنّ الأخرى نصيحةً عزيزة:

- أوَ تعلمين؟ يمكنك تخزين الخبز مجمّدًا. وتسخينه وقت الحاجة.

- كيف أشكرك! لقد فاتتني هذا. سأتوجه الآن إلى ركن الخبز. بالمناسبة لا تنسي أن تأخذي حبوب الإفطار، فصلاحيتها طويلة.
- فكرة رائعة! شكرًا. أتمنّى لك يومًا سعيدًا عزيزتي.

تتذكر مرايم أنّها تحتاج إلى خبز تأكله مع الحمص. تهرع لقسم الخبز آملة أن تجد خبز عربيًّا، أو خبز الـ(بِيتا) كما يسمّونه هنا. تلتقط آخر كيس خبز، تضمّه إليها صيدًا ثمينًا، وتمضي لتحاسب، وهي تتساءل إذا ما كانت لوثة تخزين ورق الحمّام التي انتشرت في الولايات المتحدة قد وصلت هنا. تُرى، ما سبب تخزين سلعة ثانوية مثل هذه؟ هل لأنّ الناس يفكّرون في استخدامه في صنع الكمائم إن نفدت؟ أم لأنّه يحتل مساحة كبيرة في الخزائن فيشعر الشاري بالأمان؟ أم تكون إشاعة بأن مصانعه ستقفل وسيعزّ وجوده في الأسواق؟ بل لعلّ السبب أن الإنسان حين يخاف، يقلّد حتى ولو لم يفهم.

بعلبة حمص وكيس خبز يبدو مظهرها شاذًّا. يسوؤها هذا. تعود لتجوس بين الأرفف. تشتري شطيرة تونا، وعصيرًا، وعلبة سكاكر، وكيس مكسرات، وهلامًا معقّمًا لليد، وقفازات من نوع بدا أنه أفضل من الذي لديها، و، و، و. لا يردعها سوى أنّ ذراعيها ما عادتا تتحمّلان ثقل الأغراض، وهي التي دخلت دون سلة أو عربة. نظرة سريعة إلى مكان العربات والسلال تفيدها أنها نفدت. تقف في طابور الحساب مرغمة.

يؤلم الانتظار ذراعيها، يسير الطابور ببطء في بلاد لا يوجد فيها من يخدم المشتري ويضع أغراضه في أكياس. توشك أن ترمي بالأغراض أرضا وتنصرف. "يا ربّي!" تصرخ في نفسها. تتذكر فجأة: "اللّه لا يُجرّب." لا تعدّ مرايم نفسها متدينة، وتشعر بأنّه من الوصوليّة أن تدعو اللّه فقط لتحصل على حاجتها. لكنها تعود وتقول في نفسها: "إذا لم أطلب منه وأنا الشريدة هنا، فممَّن أطلب؟" طفقت تذكر اللّه وتستغفر وتدعو، يضمحلّ ألم ذراعيها بفعل انشغالها في التفكير كيف تدعو وهي موقنة كما نصحتها جدّتها. يُسقط في يدها، فهذه أول مرة تقرّر فيها أن تفعل شيئا بيقين. تهمس في سرّها: "يا ربّ، علّمني كيف أوقن بأنك ستجيبني." ... تنكزها موظفة على كتفها، وتذيع بصوت عالٍ: "سيُفتح صندوق الحساب ذاك الآن، أرجو من الواقفين ابتداءً من هذه

الشابة وحتى نهاية الطابور أن يتوجهوا إلى الصندوق الجديد. نرجو منكم المحافظة على نفس ترتيبكم في هذا الطابور."

تجري مرايم من موقعها المتأخر، لتحلّ أولى في الطابور الجديد. تخرج منشرحة وهي تحمل الأكياس البرتقالية كتلميذة اجتازت اختبارًا صعبًا. سعادتها تجعلها تودّ لو تعانق كلّ من في الشارع. تعثر في طريقها على متشرّد متدثر بلحاف قديم في زاوية. صارت تعرف المتشرّد الحقيقي من المتسوّل المدّعي. المتشرّد الحقّ يحمل معه أغراضه الرثّة والمتناثرة، يكدسها في أكياس مهترئة. أمّا المدّعي، فيجلس متمسكنًا وأمامه كوب يتلقى فيه المساعدات. تضع أكياسها البرتقالية قرب المتشرد الغافي، تأخذ الحمص والخبز، وتترك الباقي له. تتنحنح: "إحم، من فضلك. أعتذر على إيقاظك. لكن ظننت أنك تحتاج هذه الأغراض"، وتتركه يفرك عينيه متأكّدًا إذا ما كان مستيقظًا أم يحلم. في غرفتها في الفندق، تغتسل، تعقّم هاتفها بمسحة كحولية، تسجّل لأهلها رسالة صوتية، تجهِز على الحمص والخبز، ثم تستسلم لغفوة لذيذة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

في المساء تنزل مع حقيبة اليد الصغيرة. تركت بقية أغراضها في لندن عند زميلتها في السكن. هلعُها لم يمهلها أن تحزم متاعها. أخذت أهمّ المهمّ، كهارب من حرب اندلعت توًّا.

تحيّي جون الهرِم متمنّية له العافية.

-عائدة للوطن؟

-أنا على قائمة الانتظار. عسى أن يدبروا لي مقعدًا.

-آمل ذلك حقًّا. فالوضع مخيف.

-فعلاً مخيف! لكن إذا كان ما نخاف منه آتيًا لا محالة بعد ساعة مثلاً، فمن الحماقة أن نمضي هذه الساعة خائفين منه. حينما يأتي سيكون لدينا الكثير

من الوقت لممارسة خوفنا. أما هذه الساعة، فعلينا أن نعيشها كما هي، ليس كما تملي الساعة التالية لها.

-أنت شابة حكيمة وقوية. عودي لوطنك ومحبيك سالمة!

تُدهَش مرايم ممّا قالته. لا تعرف كيف صارت فيلسوفة هكذا، وهي التي كانت يستبدّ بها الهلع فتنظف حتى حذائها بالكحول جزعا من أن يعلق الفيروس به. تستغرب من مشاعرها الجيّاشة تجاه شخص لم تعرفه إلا اليوم. الإنسان يألف الإنسان بسرعة، وفي وقت الأزمات، يظهر الناس تعاطفًا ينسيهم تقريبًا كلَّ القيود والحواجز. تأمُل مرايم أن يستمر الوضع هكذا، ألاّ يصل إلى وضع أكثر توتّرًا، وضع يكشف فيه الإنسان عن أنانيته، وضع يبدأ الإنسان يقول فيه: "نفسي نفسي"، حينما يشحّ الطعام، وتتضاءل أسرّة المستشفيات المتاحة. في هذه المرحلة من الأزمة، يتحوّل الإنسان من كائن شديد اللطافة إلى مخلوق شرس يصارع لأجل البقاء.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

في طريقها إلى المطار، تتأمّل مرايم الطريق من نافذة السيارة. تجزم أن هذا الطريق لم يكن بهذا الهدوء من قبل. تشعر بألفة لطيفة تنسيها أنها تعيش في عالم مُستوفِز من فيروس دقيق.

يقلقها صوت ورود رسالة نصيّة، فهي لا تتلقاها إلا حين تطلب منها شركة الاتصالات دفع الفاتورة، أو حين يصلها رسالة من المصرف. كلُّ ما عدا ذلك يصلها بالواتساب. تتذكّر أمرًا كادت تنساه، قد تكون الرسالة المنتظرة من شركة الطيران! يرفرف قلبها، تكاد تتوقف عن التنفس، تفتح الرسالة:

"في ليلة الجمعة، أسأل اللّه لكم ولي رزقًا مدرارًا.

أكثروا من ذكر اللّه والصلاة على النبيّ.

أختكم: سوسن أحمد."

رسالة من إنسانة تجمعها بها قرابة بعيدة. إنسانة تسمع أنّها ما زالت تستعمل هاتف (نوكيا) الخالي من البرامج الحديثة. ترى ما ذكّرها بها، وهما اللتان لم تلتقيا منذ سنوات؟ يبدو أنّ الإنسان وقت النكبات يفكّر في كلَّ من يعرف، يجرد معارفه، يتواصل مع مَن يحبّ، ومَن يشعر بأنه مقصّر في وِصالهم. تشعر مرايم أنّها رسالة إلهيّة لها. وأنّ ذكر اللّه هو ما سيعيدها للوطن، لا التذكرة المعلّقة.

تنهمك تتلو أذكارها تارة بأناملها، وتارة بتطبيق نزّلته على هاتفها. وفي منتصف الطريق، تجعل تفكر: "ماذا لو كان خيرًا لي أن أبقى؟ ماذا لو انفجرت بي الطائرة التي أكاد أُذْهِبُ نفسي للحصول على مقعد فيها!" يقلّ حرصها واستماتتها على السفر، تشعر بالحريّة والخفّة. وفي اللحظة ذاتها توقن بطريقة ما بأنها ستجد مقعدًا شاغرًا. هذه ظاهرة لطالما لاحظتها مرايم، لكنها لم تعرف لها سببًا؛ كلما زاد حرصنا على الشيء هرب منّا، ومتى ما أهملناه أتانا حبوًا!

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

رغم أنّها لم ترَ مطار برمنغهام من قبل، لكن يمكنها أن تقدّر أنّه مزدحم فوق العادة. حسنًا فعلَتْ أن جاءت مبكرة، قبل أربع ساعات من الإقلاع. منفذ الخطوط الفرنسية لهذه الرحلة يُفتح للتوّ، ولا يسبقها في الطابور سوى شخص واحد. هنا، قد تمَضي مرايم إلى الطائرة، أو تعود خالية الوفاض. تغرق في نوبة ذِكر لا يقطعها إلا صوت جزع:

-تبًّا! يبدو أنني سُرقت!

-هدّئ من روعك. قد تكون نسيت جوازك في خزنة الأمانات في الفندق. أقترح عليك أن...

يضرب الرجل المنضدة بقبضة يده، يبربر بالفرنسية، ثم يجيب المضيف الأرضي:

- محفظتي بكاملها مفقودة. وأنا لا أضع محفظتي أصلاً في خزنة الأمانات.

- قد تكون وقعت منك في سيارة الأجرة يا سيدي.

يتصل الرجل بالمكتب الذي حجز سيارة الأجرة عبره. يخبرونه أن السائق لم يجد شيئًا في السيارة.

- هل يمكنني إلغاء التذكرة واسترجاع ثمنها لأتدبّر فيه أمري؟

- دعني أرَ. يبدو أن تذكرتك قابلة للاسترجاع. سنحسم مبلغًا بسيطًا نتيجة لإلغاء التذكرة. يفترض أن تعود النقود إلى بطاقتك التي اشتريت بها التذكرة خلال...

- ماذا؟ لكني أحتاج المال الآن!

ينظر الرجل بغضب ممزوج بالانهيار إلى المضيف الأرضي.

ينادي المضيف مديره الذي يطلب من الرجل مرافقته لحلّ المشكلة.

تأسى مرايم بشدة على حال الرجل. تشعر بالذنب قليلاً، هل حدث له هذا بسببها؟ تنضو عنها الفكرة، تجزم أن بقاءه هنا خير له. فماذا لو عاد وكان حاملاً للفيروس ونقله لأحبابه؟ أو ماذا لو كان الفيروس ينتظره هنالك في بيته؟ ماذا لو، ماذا لو ...

فور انصراف الرجل، تتقدّم علّها تظفر بالمقعد الشاغر. يقول لها المضيف الأرضي:

-أوه، كم أنت محظوظة يا آنسة! أظن أن لدينا مقعدًا سيشغر خلال دقائق فور انتهاء بعض الإجراءات. واسمك أول اسم على قائمة الانتظار.

تردّ بثقة:

- كنت أعلم أن هذا سيحدث.

- عفوًا!

- أمزح. أصلاً، كنت سأهلكُ قلقًا على هذا المقعد.

يُتمّ المضيف الأرضي إجراءات الحجز متوجسًا؛ أن تكون هي من سرقت محفظة الرجل المسكين. تقرأ مرايم ظنونه البادية بوضوح على وجهه. تكتم قهقهاتها. تودّ لو تخفّف عليه، وتقول له إن لديها سرًّا. تحجم مخافة ألاَّ يصدّقها.

فور استلامها لبطاقة الصعود، تهاتف أهلها بمكالمة مرئية، تلوّح لهم بالبطاقة مبشرة بحصولها على المقعد المنتظر. يعلو صوت الزغاريد، في حين تنخرط

أمّها في نشيج فرح، نشيد فرح. تتمنى مرايم لو كانت جدّتها (ماما مريم) على قيد الحياة.

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

في الطائرة، يمارس الناس احتياطاتهم الإضافية. يمسحون المقاعد بالمناديل المعقّمة، ويغلّفون مساند الرأس بالأكياس، ويرشون الرذاذ المطهّر في الهواء. تشاركهم مرايم بعض طقوس زمن الـ(كورونا)، لكنها تفعل هذا وهي متخفّفة من الخوف. الخوف الذي يدفع بعض الركاب لرفض الوجبة التي تقدم على الطائرة.

تقول لنفسها إن فرصة وفاتها غاصّة بريقها مثلاً أعظم بكثير من فرصة وفاتها بالـ(كورونا). يتضاءل الخوف، يغدو كبرغوث تائه في فروة مَامُوث. تسترخي في مقعدها استرخاءً مُستغرَبًا من شابّة كانت أمسِ تقضم أظافرها خوفًا ممّا سيحدث. تسأل نفسها إذا ما كان استهتارًا منها أن تعانق أهلها حين تعود؟ تسأل إذا ما كان هذا الفيروس سيغيّر عادات الناس في التحيّة إذا ما استمرّ طويلا؟ هل سيتوقّف الناس عن المصافحة، ويكتفون بالتلويح من بعيد؟ هل سيتوقف الناس عن طبع القبلات على الخدود، وسيعمدون إلى إرسال قبلات هوائية طائرة؟ يقطع أسئلتها ارتجاج عنيف للطائرة، تُضاء علامات ربط الأحزمة، يعلو صوت الربّان:

"أعزاءنا المسافرين. نمرّ الآن ببعض المطبّات الهوائية. نرجو منكم ربط الأحزمة منعًا لأيّ ضرر. شكرًا لتعاونكم."

تربط مرايم حزامها، وتنغمس ذِكرًا ودعاءً. تشعر بأنها تتدرّع بدرع خفيّ يقيها كل سوء. من نافذة الطائرة، تتأمّل الغيوم السابحات، تشعر أنها تتوسّد إحداها، تغفو، ترى في منامها جدّتها (ماما مريم) تتبسّم لها على مَتنْ غيمة.

تأثير الخفَّاش

عمرو محمد البيومي

يقع بنسيون (النجوم الزرقاء) في عطفة دعبس المتفرّعة من حارة الوطاويط بالميدان الشهير.

وكان مالكه الشَّيخ حسونة الأجهُوري أوَّل من تلقى خبر إصابة المعلّم حسبو المراجيحي صاحب محلّ الملابس في الدور السفلي بفيروس كورونا قبل ذهابه إلى مستشفى العزل. وهو كذلك أوَّل من فجّر أمام نزلاء البنسيون خبر فرض السلطات الاختصاصيَّة حجرًا صحيًّا كاملاً على البناية المؤلَّفة من خمسة طوابق والتي يقع فيها محلّ المراجيحي والبنسيون لمدة أربعة عشرة يومًا، بحيث لا يسمح لأحد بالخروج والدخول من وإلى البناية الموكوسة الموبوءة بالفيروس.

الحقيقة؛ تلقّينا الخبر في ارتياع وذهول، جعل بعض منا يعضّ شفتيه بأسى، وهو يضرب كفًّا بكفّ، وجعل بعضنا الآخر يبتهل إلى اللّه بزوال الوباء والبلاء، وكان فرج بائع العطور الوحيد الذي هزّ كتفيه مستخفًّا، قبل أن يدلف إلى غرفته صافقًا بابها وراءه في عنف، مدمدمًا بسباب جارح غاية في البذاءة للحكومة والفيروس! أمَّا أنا فاتجَّهت إلى غرفتي المطلّة على العطفة ومن خلال جانب النافذة؛ ألقيتُ ببصري على عربات الشرطة الرابضة أمام مدخل البناية، وعشرات من الأسئلة المشحونة بالقلق والخوف تثقل رأسي... أعترف أنَّ الخوف تملّكني من هذا الغامض الَّذي لا يُرى، وبإمكانه التسلل بنعومة إلى جهازي التنفُّسي، والفتك به خلال أيَّام قلائل!

تركتُ قريتي الصغيرة، وجئت إلى القاهرة؛ طمعًا في تحقيق الشهرة والمال، من خلال كتابة سيناريوهات الأفلام، وبيعها لشركات الإنتاج السينمائيّ، وبعد جهد ومثابرة ولعق للتراب؛ أخذت موعدًا مع منتج سينمائيّ مطلع الأسبوع القادم لعرض أهم أعمالي عليه، هذا العمل الذي وضعت فيه كل طاقتي وزُبدة

خبرتي في الكتابة؛ حتّى ينال إعجاب كلّ من يقرؤه لجودة فكرته وحبكته، وها أنا أرى أحلامي قد تنقلب سرابًا.

مددتُ جسمي على فراشي، وأشعلت لفافة تبغ وجعلت أنفخ دخانها مثبّتًا بصري على سقف غرفتي الشاهق، والأفكار تتزاحم داخل عقلي؛ الوضع يسير من سيّء لأسوأ منذ اللحظة الَّتي اجتاح فيها الفيروس العالم، الحقيقة لم أتصوّر قطّ أن التهام أحدهم لخفَّاش في الصين له المقدرة على قلب العالم كلّه رأسًا على عقب، وإحداث كلّ هذه الفوضى! الأمر يشبه إلى حدٍّ كبير نظرية (تأثير الفراشة) لإدوارد لورينتز التي تقول: "إنَّ تأثير حدثٍ قد يكون بسيطًا في حدّ ذاته؛ لكن بإمكانه توليد نتائج وتطورات تفوق الحدث البسيط في بداياته"، وهي النظرية التي عُبِّر عن مضمونها بشكل مبسّط عندما ضربوا مثالاً يقول -فيما معناه-: "أنَّ رفرفة جناح فراشة في الصين؛ قد يتسبّب في فيضانات وأعاصير هادرة في أبعد الأماكن في أمريكا أو أوروبا أو إفريقيا"... اقتصاديَّات العالم تئنّ بالشكوى، شركات كبرى أفلست وأخرى في الطَّريق، صار الطلب على شراء المستلزمات والأجهزة الطبيَّة أهم مئة مرَّة من شراء الأسلحة والدبّابات، فطنت دول الظلّ أخيرًا إلى قيمة العلم والعلماء، تحوّلت آلاف المدن حول العالم إلى مدن أشباح بعدما مكث الجميع في منازلهم مخافة العدوى، صار العالم الموبوء بالفيروس مثل حُلم مزعج أو من الأخلق القول بأنه: "كابوس مرعب يجثم على صدورنا لا يعرف أحد متى نستيقظ منه".

نمتُ بعد معاناة، ثُمَّ استيقظتُ في الظّهيرة بعيون منتفخة كملاكم خسر النّزال بضربة قاضية من الجولة الأولى، وبصداع مزلزِل يكاد يشطر رأسي إلى نصفين، تناولت خبزًا وفلافل من بقايا عشاء يوم أمس. بعدها لم أعرف ما الّذي يتوجب عليَّ فعله؟ في هذا الوقت كنتُ أخرج من البنسيون؛ للتسكّع ومقابلة الأصدقاء في المقهى المختار، ثمَّ العودة متأخّرًا إلى الكتابة، قرّرت قتل الملل والوقت في القراءة التي أهملتها لفترة، تفحَّصت عناوين الكتب في مكتبتي، تناولت رواية (العمى) لساراماجو، وأنفقت ساعات عدّة في قراءتها بشغف، اكتشفتُ تشابهًا بينها وبين الجائحة التي تعصف بالعالم، قرأتُ عددًا

هائلاً من الكُتب لم أكن لألقي حتَّى نظرة عليها لولا الوباء وفترة العزل الإجبارية.

غلبني النوم ولم أكن قد انتهيت من الرواية بعد، استيقظتُ على صوت طرق خفيف على باب غرفتي، فركتُ عيني، ونهضتُ من فراشي، وفتحتُ الباب لأجد صينية غداء مغطَّاة بشال أبيض رقيق، موضوعة على عتبة باب الغرفة، حملت الصينية بحرص؛ لئلاّ تسقط من يدي وأدخلتها الغرفة وأغلقت الباب بكعب قدمي، كانت هذه هي الطريقة المتَّبعة لإيصال الطعام لنزلاء البنسيون؛ طبقًا لتعليمات وزارة الصّحَّة، لم تكن لديَّ رغبة في تناول طعامي، لذلك وضعت الصينية جانبًا، وعدت لقراءة رواية (العمى) مجدّدًا.

مرَّت عليَّ الأيَّام بطيئة، كئيبة، مغرِقة في ملل لا حدود له، وأنا داخل غرفتي لا أبارحها –إلاَّ ذهابًا إلى الحمَّام–، ولا أفعل أيّ شيء سوى تناول طعام الوجبات الثلاث بشهيّة معدومة تقريبًا، وقراءة الروايات بشكل مستمرّ، انعدمت تمامًا علاقتي بباقي زملائي في البنسيون، فيما عدا لقاءً وحيدًا عابرًا مع ناصر الجرجاوي تاجر الملابس بميدان العتبة، وكنّا نتحدّث فيه مع بعضنا بعضًا؛ كلٌّ من عتبة غرفته وبصوتٍ عالٍ... على أنّ ما كان يشغل بالي حقًّا طوال الأيَّام الماضية هو كيفية الخروج من البنسيون، بعد يوم الغد، وسط الحصار المفروض عليه من قوات الشرطة؛ لمقابلة هذا المنتج السينمائي. تفتّق ذهني عن فكرة جيّدة، تأمّلت أن يكلّلها اللّه بالنجاح. لذلك وفي الظهيرة وقبل الموعد المتَّفق عليه مع المنتج بعدة ساعات، خرجت من البنسيون للقيام بمحاولة يائسة للإفلات من الحصار المضروب ومقابلة المنتج، ما كدتُ أخطو بضع خطوات خارج باب البناية التي يقع بها البنسيون، وعيني تفتّش عن الضابط المسؤول عن الحجر الصحيّ؛ حتَّى اعترض طريقي أمين شرطة حادّ الملامح، غامق السمرة، يميّز وجهه شارب كثّ ضخم يصلح كعشٍ لعصفورٍ، طلبت منه بشكل ودّيّ السماح لي بمغادرة البنسيون صباح الغد من أجل القيام بمأموريّة خطيرة، اعتقدت لوهلة أنَّهُ سيرضخ إلى طلبي خاصة مع أدبي المبالغ فيه وأنا أحدثه؛ لكنّي وجدته يرفض استجدائي بلهجة حادّة أقرب للوقاحة، لم يكتفِ

الرَّجل الجلف بهذا، وإنمّا نهرني في شدّة طالبًا مني العودة إلى البنسيون فورًا دون إبطاء.

صعدت إلى البنسيون؛ أزفر غضبًا، تغلي الدّماء في عروقي، أحسستُ أنني أفقد كلّ شيء، وأنّ الأمل يتسرّب من بين يدي، وأنا أقف (محلّك سرْ)! مكتوف الأيدي حيال ما يحدث؛ فكّرت في الاتّصال بالمنتج لتأجيل الموعد المتَّفق عليه حتَّى فكِّ الحصار عن البنسيون، لكنَّي تراجعت عن الفكرة خشية أن يفسّر المنتج طلب التأجيل بأنَّهُ استهانة به أو ما شابه.

كنتُ أجلس في صالة البنسيون، مشعلاً لفافة تبغ أدخّنها في عصبية، تتصارع الأفكار داخلي رأسي؛ عندما وجدت الشَّيخ حسونة يربت على كتفي في رفق قائلاً لي في هدوء:

– ما لك؟

كان الشَّيخ حسونة في الخمسين من عمره، أو نحو ذلك، ربعة، ذو وجه وضيء مريح، يبعث الراحة في النفس، يزين هذا الوجه الطيّب لحية مسترسلة يغزوها الشيب، يرتدي جلبابًا أبيض قشيبًا، ويعتمر طاقية بيضاء بديعة التطريز. يتمتع الشَّيخ بمحبة ومكانة سامية بين سكان عطفة دعبس وحارة الوطاويط وما حولهما، كما أنَّه يؤمّ النَّاس في الصلوات الخمس بزاوية الحسن والحسين الموجودة جوار البنسيون... الحقيقة أنني أحبّه، ولا أعرف السبب؟ ربمّا لأنَّ ملامحه الوديعة المسالمة المحفورة على وجهه تقترب من ملامح والدي الراحل، أو أنَّه رجلٌ طيّب في عالم يعجّ بالأوغاد والأشرار والسَّفَلة! أتذكّر أنّني مررتُ بضائقة ماليَّة قبل عِدّة شهور، ضائقة من شدّتها لم أستطع معها دفع الإيجار الشهري لغرفتي، ولَمّا صارحته بهذا وأنا أتوقّع أن يطلب مني لمَّ أغراضي، ومغادرة (بنسيونه)؛ وجدتُه على العكس يهون عليَّ الأمر، ودعا أن يفرجها اللّه عليَّ وعلى خلق اللّه في أقرب وقت ممكن.

طوّق معروفه عنقي، ووجدتُه يحتلّ قلبي دون إرادة مني؛ من أجل هذا؛ وجدتُ نفسي أصارحه بكلِّ شيء؛ موعد المنتج السينمائي، وانعدام فرصي في لقائه؛ بسبب الحصار المفروض على البناية، خوفي على حلمي الموشك على التلاشي إلاّ إذا هبطت معجزة من السماء عليَّ، خوفي من هذا الفيروس

الغامض الذي يحصد الأرواح حصدًا، ويتساقطون أمام سطوته وجبروته دون أدنى مقاومة وبلا حول ولا قُوَّة.

انتهيتُ من كلماتي تزامنًا مع سحب الشَّيخ كرسيًّا، وجلوسه أمامي محافظًا في نفس الوقت على مسافة آمنة بيني وبينه قبل أن يقول بهدوء:

-لا تخف، ولعلّ بعد الضيق فرج، وتأمّلْ في اللّه خيرًا.

قلتُ له باستنكار:

-خير؟ أيّ خير وحلم حياتي يكاد يتبدّد أمام ناظري؟ أيّ خير والنَّاس يتساقطون في الخارج كالذباب من سطوة هذا الفيروس اللعين!

تجاهل استنكاري وأجابني بهدوئه المعتاد:

-ادعُ اللّه واستغفرْه، ولا تدري لعلّ اللّه يحدث بعد ذلك أمرًا.

التفتُّ له في حدّة وسألتُه محتَدًّا:

-الدُّعاء! هل سيغيّر هذا من الأمر شيئًا؟

بُوغت الشَّيخ من لهجتي الحادّة معه، أو أنَّهُ لم يتوقع تلك الاستهانة بكلماته فطفَتْ على وجهه معالم من الضيق، لكن سرعان ما لانت قناته، وتبدّد ضيقه، وعاد وجهه لسماحته المعهودة؛ فقال لي وأنا أشعل لفافة تبغ ثانية:

-وقالَ ربُّكم ادعوني أستجبْ لَكُم﴾ هكذا يقول كتاب اللّه.

لم يرُقْ لي كلامه؛ لذلك لم يبْدُ عليَّ أيّ تأثُّر به، أمَّا هو فاستطرد قائلاً:

-نحن في محنة وبلاء عظيم يزلزل العالم كلَّه من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه، وإيمان المرء باللّه -سبحانه-ودعاؤه وتضرُّعه، ودعاؤه له -جلّ جلاله- من شأنه أن يبدّد تلك المخاوف ويذيب القلق الذي ينهش قلوبنا.

سألته في لهجة لا تخلو من عصبية:

-وهل الدُّعاء يُغيّر القدر؟

أجابني بهدوء:

-ذكر عن الرسول الكريم -صلّى اللّه عليه وسلَّم- قوله: "لا يردّ القضاء إلاَّ الدُّعاء"... إذن الدُّعاء يردّ القدر؛ لأنَّ كليهما قضاؤه من عند اللّه؛ لأنَّهُ -سبحانه- يعلم أنّ العبد سيدعوه، ويغيّر اللّه القدر بقدر آخر مكتوب عنده.

يقول الرسول-صلّى اللّه عليه وسلَّم- في هذا الشأن: "إنّ الدُّعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض إلى يوم القيامة".

عدتُ وسألتُه في حنق:

-وإذا كانت حياتي ومستقبلي مرهون بفرصة لقاء هذا المنتج السينمائيّ فما عساي أن أفعل وأنا أرى الفرصة قد تضيع مني؟

-لعلّه خيرٌ!

قلتُ له وأنا أتميّز غيظًا:

-تكرّر نفس الكلام، ولا أستطيع هضمه أبدًا!

قال في بساطة:

-ولِمَ؟

سألتُه وأنا أحكّ ذقني بسبّابتي، وأهزّ قدمي في عصبيّة:

-كيف سيأتي الخير لي إذا أخلفتُ موعدي مع هذا المنتج السينمائيّ؟

-ربمّا كان الشر يتربّص بك -والعياذ باللّه- من هذا اللّقاء!

ضحكت ضحكة مجلجلة تردّد صداها في الصّالة؛ استهانةً بإجابته قبل أن أسأله ساخرًا:

-أستميحك عذرًا يا شيخنا أن توضّح لي.

قال بثقته المعهودة:

-على رسلك يا فتى؛ تحلَّ بالهدوء، ولا تجعل ثورة العصبيّة تتلف تفكيرك، ما أعنيه أنَّه ماذا لو كان هنالك سيناريو آخر مرسومًا لك إن غادرت (البنسيون)؟ سيناريو آخر لم تكتبه أنت أيُّها السيناريست؛ كأن تُصاب بالفيروس -والعياذ باللّه- وقتما تخرج لمقابلة المنتج السينمائيّ، من سعال أحدهم، أو ملامسة سطح ملوّث بالفيروس، أو أن تصدمك سيارة طائشة -لا قدر اللّه-لتلقى حتفك، أو أن يكون المنتج في مزاج سيّء عكِر هذه اللَّيلة؛ فيرفض لقاءك، أو يرفض عملك من الأساس، القصد يا بنيّ أنّ الخير ربمّا يكون ها هنا، في عدم ذهابك للمنتج، والتزامك بالعزل الذي فرضته السلطات الاختصاصيَّة.

-والفرصة التي ستذهب أدراج الرياح؟

-نفسك أهمّ... ولا تعلم؛ فقد يعوّضك اللّه بأحسن منها.

وسكت لهنيهة قبلما يستطرد بصدق:
-هذا لو وضعتَ ثقتك في اللّه حقًّا.
قُلتُ باقتضاب وبلامبالاة، وكأنّي أضع حدًّا لنهاية المناقشة:
-إن شاء اللّه.
قال بارتياح:
-بوركت يا بُنيّ.
كدتُ أدخل معه في جدال مرَّة ثانية، كنتُ أغلي من لهجته الواثقة، وتحلِّيه بهذا الهدوء المستفزّ، الأمر يشبه تدخين قبطان سفينة لغليونه في هدوء بقُمرة القيادة وثمَّة عاصفة تلوح في الأفق منذرةً بغرق سفينته وهلاك من فيها! لكنّي آثرتُ الصمت، كنتُ مشوّشًا، خائفًا، مرتبكًا يلتهمني القلق والتوتر التهامًا. أحاول جاهدًا لملمة شتات نفسي المبعثرة، لذلك لم أشأ الاستمرار في خوض غمار هذه المعركة الجدليّة مع الشَّيخ حسونة في هذا اليوم الكئيب خاصّة أنّني لم أقتنع بكلامه أبدًا.

انتهت مناقشتنا عند هذا الحدّ، دعا لي بالتوفيق والسداد في النَّهاية، شكرته في لطف وتركته في صالة البنسيون، يقرأ من مصحفه ذي الحجم الكبير بصوته العذب، واتجَّهت إلى غرفتي، لبثتُ في غرفتي فترة أحترق من التفكير، حتَّى غادرتها من الضيق، وغادرت البنسيون، وأنا أشعر بأنّ الرؤية غائمة ضبابية أمام ناظري، جلستُ على السلالم المقابلة له، وأشعلت لفافة تبغ مفكِّرًا في حلٍّ حاسم للخروج من الأزمة، في تلك الأثناء تناهى إلى مسامعي صوت وقع أقدام السِّتّ أمِّ أحمد، الساكنة في الطابق قبل الأخير، وهي تهبط درجات السلم قادمةً من السطح، وهي تحمل كومة من الملابس بعد غسيلها وجفافها، وكانت من عادتها نشرها على سطح البناية، في لمح البصر تفجّرت في مخّي فكرة الهرب من البناية عبر السطح المجاور للبنسيون. أعترف أن الأمر ينطوي على مخاطرة لا يستهان بها، قد أسقط من شاهق، وتدقّ عنقي في ثانية، وتصعد روحي للسماء، أو أن تعثر عليَّ عيون الشرطة المتمركزة في الأسفل، لكنّي أبعدتُ هذا الأمر عن ذهني تمامًا أو تجاهلتُ الخوض فيه، استحوذ عليَّ تمامًا تصميمي وعزمي على لقاء المنتج السينمائيّ في الوعد المتَّفق عليه مهما كانت العواقب والنتائج.

اختمرت فكرة الهروب في مخّي تمامًا، ونضجت على نار هادئة، لذلك فمع تباشير الصباح الأولى غادرتُ البنسيون، وصعدتُ إلى السطح على أطراف أصابع قدمي، ألقيتُ بصري من سور السطح للأسفل، ازدردتُ لعابي بصعوبة وارتفع وجيف قلبي، كان عليَّ المشي في حذر على إفريز ضيق لا يتجاوز عرضه الربع متر، وصولاً إلى سور السطح المجاور للبناية الملاصقة للبنسيون، ثمَّ القفز إلى سطحها من على السور؛ حتَّى أنال حريتي، انتظرتُ ثوانٍ؛ حتَّى بردت أعصابي، وعاد قلبي للنبض بمعدله الطبيعي، ثمَّ تحسّست السيناريو الموضوع داخل سترتي؛ للاطمئنان على وجوده بأمان؛ خشية وقوعه، ثمَّ جلستُ بحذر على السور، ووضعتُ قدمي على الإفريز الضيق وبدأت في المشي بخطوات حذرة وئيدة نحو السطح المجاور متجنّبًا النظر للأسفل، كان عليَّ قطع مسافة تتجاوز عشرة الأمتار بقليل بحسب تقديري، تجاوزتُ نصف المسافة، ومع كلّ خُطوة أخطوها كنتُ أشعر باقترابي من حريتي المفقودة وحلمي المنتظر.

لم يكن يفصلني عن بداية سور السطح المجاور سوى ثلاثة أمتار فحسب؛ حتَّى وجدتُ جرذًا ضخمًا يهرول نحوي! أصابني الذعر وارتعدت فرائصي، لديَّ رهاب من الفئران؛ بسبب حادث حدث أمام ناظري وأنا طفل صغير، حيثُ قضم جرذ ضخم أصابع يد شقيقي الرضيع النائم بجوار الفرن في غفلة من أمّي، ومن وقتذاك تولَّدت لديَّ فوبيا من هذه الكائنات رماديَّة اللَّون المقزّزة، مرّ هذا الحادث الأليم أمام ناظري في لمح البصر، لملمتُ شجاعتي، وحاولتُ إخافة الجرذ بإصدار صوت من فمي؛ لأجعله يتقهقر للخلف خوفًا، لكن الجرذ أخذ في المضيّ نحوي في إصرار غريب وجُرأة قُحة غير مكترث بصوتي الأجشّ لترهيبه، لم أفكّر كثيرًا؛ قررتُ التقهقر للخلف والعودة لسطح البنسيون؛ حتّى يمرّ الجرذ بسلام، وأتجنّب مواجهته، في تلك الأثناء حدث أن اختلّ توازني بغتة، وجدت نفسي، وفي جزء من الثانية، أسقط نحو الأسفل وأنا أطلق صرخة مدوية، ضاربًا الهواء بيدي، سقطت في عنف على سيارة الشرطة الرابضة أسفل البناية، وشعرتُ بمذاق الدماء في فمي، وتحطّم عظام جسدي، لم يمضِ الكثير من الوقت حتَّى تحلَّق الكثيرون حولي ممّن جذبهم صوت الارتطام العنيف، الوجوه كثيرة، العشرات منها تلقي عليَّ أبصارها في مزيج من الشفقة والحسرة والذعر والحيرة، من وسط الأشخاص الَّذين تكأكؤوا حولي؛ ميّزتُ

وجه الشَّيخ الأجهوري، الوجه الوضيء الغارق في النُّور، كان يعبث بمسبحته الكهرمان ملقيًا عليَّ نظرة تستعصي على النسيان وقد اغرورقتْ عينه بالدموع، ندّتْ مني آهة توجُّع، اقترب منّي، ومسح رأسي بيده، وكأنَّهُ يخفّف عنّي وطأة آلامي، شيئًا فشيئًا تكاثفت كتل من الظلام أمام ناظري، أسبلت جفوني بهدوء ولم أعُد أشعر بأيّ شيء.

رسالة إلى الولد

محمد لخديم

بعد سبعة وعشرين عامًا على مرور المأساة الخالدة (الوباء)، مات والدي وقد ترك هذه الرسالة، قصّة غير عاديّة، تترك انطباعًا مرهبًا في النفس لكنّها تقود إلى الطريق، حيث اللّه، حيث الأمان الخالص... التقوى، إنّها محمّلة بكلّ معاني الصدق والاستغفار، لكن إلى الآن لا أعلم ما إذا كانت وقائعها حقيقيّة خاصّة أنّ والدي ألِف على القول: "لقد كان الرجلان صادقان، إنّهما رمزا الشّكّ والمعرفة، ماتا ولم يموتا من ذاكرتي"، إنّه لشيء غريب!
كتب قائلاً في رسالته:

وطأت قدماي المشفى المحلّيّ؛ طلبًا لأمل يهوّن عليّ شكّيّ، فإلى جانب تداعيات وأعراض الفيروس المستجدّ من ارتفاع درجة الحرارة، وسعال جافٍّ أكاد أتقيّأ رئتيَّ على إثره، وكذلك شعرت بضيق في صدري وتهاوٍ، كنتُ مدركًا أنّ جسدي ينفث عنه الروح، شعرت أنّي تائه، كأن العالم انتهى أمام عينيّ... وبعدما أخذوا عينة من دمي من أجل الاختبار، طُلب مني الانتظار في قاعة مخصّصة لذلك، جلستُ أتأمّل البياض المحيط بي من كلّ زاوية، تاهت عيناي في الغرفة الفارغة تمامًا إلا من الكرسيّ الذي أجلس عليه، رائحة الموت تتسلّل من الغرف المجاورة، وتتردّد أصوات تلفّ المشفى؛ كأنّها تنبعث من لوحة الصرخة لـ (إدفارت مونك)، كان ثمّة صوت... أنينٌ عميقٌ قريبٌ منّي، لا أدري أيّ ألم يتولّد عنه هذا الصوت، وكأنّ أحدهم يفكّك نسيج قلبه، وتتفتّت مادّته بالجوار، حاولتُ جاهدًا الوقوف؛ كي أسمع بوضوح، وأتتّبع مصدر الصوت، إلاّ أنّني سرعان ما أسقط عند أول محاولة، كميّة التوتّر والتوجّس تسبّبت لي في ارتخاء عضليّ؛ جعلني عاجزًا عن رفع قدمي.

بين أربعة جدران، والدّقائق الطوال، يتأرجح صبري والسؤال المهيمن: "ماذا لو كانت نتيجة التحليل المخبريّ إيجابيّة؟"، وكان ذلك يحدث ثقبًا في رأسي، ويجعلني أفقد صوابي... بعدها بنحو ستّ ساعات، قدم الطبيب نحوي، وقال: "ستبقى معنا للعلاج"، كان كلامه كالسّهم يخرق جثة طفل يريد النجاة، لم أستطع كبح دموعي التي كنت أصرفها بين الحانات، والحدائق، والحبّ، هذه الدموع كانت على غير العادة، مرعبة، ومُرّة، كانت كتكفير على تقصيرٍ أمديّ، أو كمذنب لحظة احتضاره.

ليلاً، في محاذاة تلك الرقعة في الخارج كنتُ أرى تاريخ الانسياب البطيء، إلى تاريخ علاقتي باللّه، إلى آخر سؤال عالق برأسي: "لماذا هذه الأمواج المتلاطمة من الموت؟"، إنه ولا إجابة تأتي من غير انهياري على الأرض ساجدًا، مبتهلاً، ومتوسّلاً للّه، لقد انهرت، لقد رزحت بصورة باكية بين أحضان أكثر اللحظات المأساوية، وخررتُ أسأل:" لِمِ يا ربِّي؟ لِمَ؟ إنني متعب يا ربِّي..."؛ شعرت بالذنب، وتذكرتُ فورها قصّة نبيّ اللّه إبراهيم: يا ربِّي كيف تحيي الموتى؟؛ فعلم أن العلم يزيد من الإيمان ودرجات الجنة، إنّه أمام تاريخ الموت. ظللتُ ساجدًا على ذلك الحال؛ حتّى نمتُ.

قرابة الفجر، أستيقظ وقد نال مني الإنهاك، لم يكن نومًا، ربمّا هو إغماء، كنتُ أستطيع تحسُّس البرد ككساء يغطّي لحمي ليرتجف، وكانت قطرات المطر ترتطم بزجاج النافذة، سماءٌ متلبّدة بغيوم سوداء يمكن إبصارها، اقتربتُ ببطء نحوها، كان يوجد رجل في الخارج، يرتدي جلبابًا أبيض بلحية خفيفة، كان وجهه منيرًا إلى درجة الانبهار، لكنه كان حافيَ القدمين، ظلّ ينظر إليَّ... استمررنا في النظر إلى بعضنا مدّةً قصيرة، فتحتُ النافذة، كان المطر ينزل برشاقة؛ فتحمله الريح ليصطدم بجسدي ويجعله يرتجف، اقترب منه رجل آخر يلبس رداءً شبيهًا بملابس الإغريق القدامى، أصابتني الدَّهشة وبعض الطَّرب من الكوميديا داخلي، كان رجلاً بلحية طويلة ورأس فارغ الوسط من الشعر، سمعتُه يقول:

- تتأمّل؟ التفتَ إليه الرجل ذو الجلباب الأبيض، وأخذ يقول:
- اليوم أمطرت السماء لتطهّر قلوب هؤلاء، وأخرجتَني صوب النداء الأعظم.
أجابه الرجل الشبيه بالإغريق:
- هو الحال معي.
وأردف بعد صمت قصير:
-المدينة خاوية، كأنّ الأشباح ما تبقّت.
أجابه:
- لقد هاجر الناس كلّ مرتع، كما تهاجر الروح الجسد بحثًا عن اللّه، لكن الأمر مختلف تمامًا هذه المرّة، هاجروا إلى بيوتهم.
- مقصد جميل، قلتَها قبل الموت أم بعده؟
- الموت، هناك ما هو أعظم من الموت الطبيعيّ الذي تعرف، موت لبِّ الإنسان واحتضار دواخله العامرة بالحبِّ، إنّ الأسوأ من موت الجسد موتُ الروح.
- وأين توجد الروح؟
- الروح هي نور الجسد، إن نور المصباح يضيء كلَّ ما يحيط بالمكان، كذلك هي، والروح أمرٌ من اللّه رحمةً بعباده، سرُّ الوجود، ونور الجسد، توجد في كلِّ مكان، هي معراج الكمال وسلَّم الجمال وعطر السلام الذي يهيِّئنا لوصال المقام المرتقي.
-والموت؟
-موت الروح، والجسد على قيد الحياة.

قال الرجل الشبيه بالإغريق بصوت مخمليّ:
- شاعريّة الموت قد تتجسّد لديك في هذه الغاية، يا صديقي إنّ الموت أبلغ من ذلك كثيرًا، أبلغ من ملامسة التراب للجسد، بل أبلغ من تلك الديدان التي تنهش الجسد، أبلغ من الرعب الذي يضفيه انفجار بطن الجثّة، إنّه النهاية السرمديّة لكلِّ شيء، لكلِّ ما هو حيٌّ.
ظللتُ أسترق السمع والنظر حتّى بعد صمتهما، كانا ينظران لي بنظرات تطلُّعٍ غريبة، تسرّب من خلالها التوجّس إلى نفسي، وتملّكتني الأسئلة والغرابة، بعد لحظات قرّر الرجل الإغريقي مقاطعة الصمت قائلاً:

- كنتُ مشتاقًا لأرى هذا المنظر البديع، لكن ليس بهذا الشكل المؤلم، لقد كنتُ مؤمنًا أن الناس ستصل لهذا الوضع، اليوم، الناس أمام الموت، والوحدة، والجزع، لكن الأفظع يتجلّى في الوحدة ومنفى الإنسان.
- اليوم فقط، يدرك العالم بأسره أنّ هذا ليس زمان اتّخاذ إخوان، إنما هو زمن لزوم البيت، عزُّ المؤمن استغناؤه عن العالم وانعزاله، موصدًا أبوابه في وجه الجميع سوى وجه اللّه، فالنجاة في القرب منه. (يقول الرجل ذو الجلباب الأبيض)
-والدواء؟

صمت الرجل ذو الجلباب لبرهة، ثم قال:
- ألقِ بعينيك جانبًا وانظر بعين قلبك، فعين القلب لا تخطئ؛ الدواء لعلاج كلّ داء هو فرار الروح من أسقام الجسد إلى خالقها، الدواء في الرضى بأمر اللّه، فالعارف بالخلق من يرى البلاء على نفسه رحمة، الدواء في تخلية الروح من درن المعاصي وسقم السواد، وتحليتها بعسل الحبِّ.
-ماذا تقصد بهذا الدواء؟
- كلامي جلوة الوضوح، من اغترف من حبّ اللّه عرف الدواء، هو الاستغفار.

كان حديثهما يكسر الصمت المخيف في الخارج ويهوّن عليَّ طَرق مسامير الأسئلة في رأسي، واعتقدتُ للحظة أنّ تأمّلاتهما بمثابة أجوبة ضمنيّة تحمل في دلالاتها حلاً لإشكالاتي، الآن فقط أدرك أنّي ولدتُ من جديد، كأنّي الوحيد في الوجود، وأنّ حياتي قبل رؤية هذين الرجلين عبثيّة لا مرجع لها.
صوت الرجل ذو الجلباب الأبيض منزوع الأشفار، رقيق مرهف يتسلّل إلى جذور قلبي كبلسم؛ محدثًا طربًا لذيذًا لا تعادله أيّ معزوفة، رجلٌ يهطل رقّة موازاةً مع هطول المطر، هذا الرجل الحافي جعلني أنتفض على حياتي التي استنزفتُها دون جدوى، ثلاثون سنة من فوات المعنى، من الرّزوح والهروب من ذاتي، بينما كان هروبًا من ولادتي، من واقع الأشياء الصّلبة والكاسرة، من لحظة احتضار أمي بين يدي، من اللّحظة التي قُتلتْ فيها، اللحظة التي طلب منّي الممرّض

إمساك يدها والتحدّث معها، من اللحظة الكاسرة وأنا بعمر الثالثة عشرة التي ماتت فيها أمّي، ليخرج القاتل من السجن، دون أن تخرج أمّي من قبرها.
لَمِنَ الغريب أن يكون اسم المرء مضادّا لحياته (كمال)، أيّ اسم هذا وحياتي بلا معنى! حياة تغلّفها مشاهد الموت والجزع، يا إلهي ما الذي أفعل؟، يا ربِّي العظيم كيف لي أن أبدأ؟ ما الذي يتوجّب عليَّ فعله، ودون شعور وجدتُ نفسي أخرج من النافذة، ظلّ كلاهما يراقبان خطواتي، وطء أقدامي على العشب، كنتُ أستطيع تحسّس ملامسات قطرات المطر لجسدي، إلى بعض الارتجاف من برودة الجوّ، إلى الجوّ القريب من الظلمة رغم أن الوقت كان العصر.
– من أنتما؟ (أقول).
– أنا البشارة من اللّه، أنا الزاهد في الدنيا الذي لا يريد سوى رضى الخالق، أنا المحفوف بالعشق المثقل بالرضى، أنا الدرويش الحافي. (يجيب الرجل ذو الجلباب).
ويقول الرجل الشبيه بالإغريق:
–وأنا السوط يجرح المعتاد، ويهدم المفاهيم، فإن كان العاقل يشكّ مرّة؛ فإني أشكّ ألفًا، وإن كان المظهر يعلي المرء؛ فأنا في أسفل الجحر.
– لا أفهم ما تقصدان، إنّكما غريبا الأطوار، من أين أنتما ؟ (أقول).

يردّ ذو الجلباب:
– أتيتُ من مكان لا تعرفه، مكان تسافر إليه دون أمتعة، متاعك الوحيد الحبّ، أتيتُ من مكان لا شياطين فيه، مطوَّق بالسلام، مزيَّن بكلام اللّه، مكان طاهر.
ويقول الإغريقي:
– أما أنا فأتيتُ من بعد آخر ظلّ الحقيقة الغامضة للجنس الأخير، بين طيّات الماضي والحاضر والمستقبل المجهول تكمن إرادة المرء، تلك الإرادة هي منزلي الوحيد.

أعقّب في ذهول وقد تملّكتني الغرابة:
– أنتما غريبان حقًّا.

- اُدنُ منّي بقلب سليم وروح مطمئنة، أَمسكْ يدي، تحرّرْ من قيود جسدك، واطرحْ عينيك وراءك، وانظرْ لي نظرةً بعين القلب، انزعْ نعليك وألقِ بهم، أريدك حافيًا مثلي، شفّافًا، ظاهرك يكشف باطنك. (يقول ذو الجلباب).
- لماذا أنزع حذائي؟ (أسأل).
- أريدك حافي القدمين؛ لأنّ مولاي لم يصالحني إلا عندما تركت حذائي ورائي، وهرعتُ إليه بقلب نقيٍّ كيوم ولدتْني أمّي، أمس قد مات، أنت ابن الليلة، اختارك اللّه ليوجّهك إلى طريقه، إنّه أقرب إلينا من حبل الوريد.
يقول ذو الجلباب.

نظر لي الرجل الإغريقيّ بنظرة متفحِّصة، وقال كالحكيم:
- إنّك على مقام الفهم قد تعزف لحنك، ألقِ ما عليك، إنّك لم تولد بالنعل ضربًا.

تستمرّ الحيرة في رأسي، أجيبهم دون تفكير:
- حسنًا.
أنزع حذائي قائلاً:
- ها أنا ذا.

يستمر المطر بالهطول بينما نتمشّى حفاة، يقول الرجل ذو الجلباب:

- كما قلت لك لم يقبل اللّه صلحي إلا وأنا حافي القدمين منزوع النعل، زاهدا في الآني والآتي، في غنى عن الناس، أنت الآن على طريق صلح ربّك وطلب المغفرة والغسل بماء التوبة النقيّ، كنتُ مثلك في لهوٍ وجفاء وتيه عن ذكر ربّي، في ترف ظاهر وفقر باطن، لكن اللّه أراد بي خيرًا ما بين طرفة عين وانتباهتها، ورفعني من هلاك حتمي ووجّهني اللّه إلى سبيله رحمة بي، أنا الليلة أوجّهك إلى سبيله؛ لأنّه يحبّك ويريد بك خيرًا، رحمة بك وبقلبك، إيّاك والظنّ أنّه لا يسمع صوت تردُّد الفراغ في أوصالك، وطنين قرع الخيبات في صدرك، ألم تتوسّل بحثًا عمّا يضمّد قلبك النازف، ويبدل الحزن سلامًا؟ اعقُدْ مع ربِّك

عهد صلح يفتّت كتل الألم، إنّه يعلم كلّ شيء عنك، يعلم بلحظات الوهن، بسكرات الألم التي تحاول أخذ روحك، بالتيه الذي تتخبّط فيه؛ لذلك كن في حضرته كما أنت، بكلّ ما فيك من تناقضات، إنّه يرى كلّ ما فيك من زحف الولاء، يرى كلّ ما بداخلك لكنّه يحب أن تعترف له، أن تخبره دون زيف أو تصنّع، اطلُبْ الرحمة، وابك بين يديه إنّه كان غفّارًا، وهو القائل: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)﴾، فيا بنيّ امدُدْ يدك، واستغفرْ ربّك إنّه الغفّار ذو القوّة المتين، ربّ السماء والأرض، واشكُ وهنك وقلّة حيلتك، واطلُبْ المغفرة؛ حتّى تحلّق روحك وتسمو نحوه، دع قلبك يقول بأعلى صوته: اغفرْ لي يا ألله!

شعرتُ بخفّة في قلبي، وكأنّي أمام نفسي اللائمة، كأنّه الطرد الأخير لها لغيابات النار حيث تحرق، شعرتُ أنّه الوعد... أنّ باب الإجابة قد فُتح. أردف ذو الجلباب يقول:

- ابكِ طلبًا لرضاه، فأنا بكيتُ وما زلتُ أبكي؛ حتّى استلّت أهداب عيوني، أبكي خوفا من أن يغضب ربّي عليّ أو يصيبني سخطه فتهطل دموعي جرّاء ذلك، وأبكي فرحًا عندما أستشعر رضاه ويعينني على الصالحات، ابكِ فالبكاء ماء الرقّة النابع من بئر القلب.

سألتُه:

- كيف أطلب مغفرته؟، كيف يسامحني، ويغفر زلّاتي، ويرممّ انشطار ذاتي؟ ماذا أفعل يا رجل؟ آه ماذا أفعل؟

قال الرجل الإغريقي:

- ما أفهمه أنّ القصد هو المغفرة، هي مفتاح كلّ سؤال، مفتاح الأبواب التي تربط السماء بالأرض، لكن قد يتبادر لنا سؤال منطقيّ عن المفاهيم الثلاثة، ما المغفرة؟ ما الاستغفار؟ وما التوبة؟

أجابه الرجل ذو الجلباب:
- هي مفاهيم متداخلة تربطها علاقة تلازم تحمل في دلالاتها جلوة الوضوح وبيانه (التوبة)؛ إنّها تخلية الروح من كلّ فاسد، والندم النابع عن صفاء القلب من درن المعاصي والرذائل، ثم تحلية اللسان بحلو الاستغفار، والاستغفار هو طلب المغفرة عن طريق التنقّي والطهر من الذنوب، فالاستغفار ماء التوبة والسبيل الواضح إليها، وفي التنزيل قوله عز وجل: "استغفِروا ربّكم إنّهُ كانَ غَفّارًا"، الاستغفار هو إصلاح الأمر المتهافت قولاً باللسان، وإقلاعًا بكافّة جوارح البدن.

نمضي، استطعمتُ لذّة الجوّ، شعرتُ بانفراج كبير في صدري، خرجنا من محيط المشفى، ومررنا بأرضٍ خلاء وصولاً إلى دُور الصفيح، دُور الفقراء من الناس، شعرتُ بأنني أكاد أفهم الدور من هذا الترجّل والخطو، لابد أن تكون هذه إجابة عن سؤال ما في كيانات عقلي، في المفاهيم، والأسئلة، لكن المكان كان خاليًا... خاليًا إلى درجة رهيبة، يستطيع المرء الشعور بالمنفى داخل أحد الدُّور هنا، كانت كلّها مسقوفة بالزنك والحديد، لم أخطُ منذ مدّة طويلة في مكان مثل هذا، لكن الحياة كالعجلة، توصلك إلى ما كنتَ قد نسيتَه.
بعد لحظة، يقف الرجلان، كنّا بالقرب من منزل متهالك صغير يكاد يسقط فوق رؤوس من يسكنه، سمعنا صوتًا ساحرًا يخرج منه، يلقي ما يلقي وكأنّها الساعة، كان صوت امرأة لم نستطع رؤيتها، تبتهل بشعر مطلعه:

«حملتُ الأكفَّ إلى ربِّي
لا أسأله من الدرهم درهما

وقلتُ جهرًا يا ربِّي

إنّ الابن هتكت حماه الأَجْرُمَا

فالخنوع للألم أمرضني
فالشفاء يا ربّي؛ ما كنتُ مجرما ..."

تتمايل عينا الرجل ذو الجلباب إلى أسفل حزنًا على ما سمعناه، وقال:
- أسمعتَ نحيبها؟، كيف أن صندوق ذكراها مع ابنها لم يقفل بعد، تقضي حياتها على أمل رؤية فلذة كبدها ولو على سبيل الحلم، لا تملك أمام قدر اللّه سوى نسج خيوط الكلمات رثاء وبكاء، الموت هو النصيب الذي نستقبله بصبر عظيم عندما يطرق أبوابنا.

رفع وجهه إلى السماء، بدأت قطرات المطر تصفعه بطريقة ساحرة، فيما أخذ يستمتع بالأمر، ليردف بعدها:
- أخذ اللّه منها أقرب ما لديها، يقتلها الشوق والحنين، رائحة الموت ما تزال عالقة في ثيابها، دفنت الأماني والأحلام مع ابنها تحت التراب، أرأيتَ كيف أنّ الفراق أشدُّ وقعًا من الموت نفسه؟ ما الموت إلا بداية فعليّة لحياة حقيقيّة قريبة من اللّه الحيّ الذي لا يموت، يبتلينا اللّه في ما نحبّ؛ ليختبر مدى إيماننا ورجوعنا إلى رحابه، أما التضحية فتتجلّى في الصواب، أن نركض في طريق اللّه لنلتقي الأحبّة في الجنّة، إنّ النّار تفرّق بينهم بعد القيامة، أمّا الجنّة فتجمعهم.
وردّد الرجل الإغريقي:
- إنّ الفقدان كالشفرات الحادّة تنخر الصدر والقلب، تجعلنا نهوي إلى الأسفل، بل إنّها تجعلنا نقفز نحو تعاستنا، إن التمرّد على الألم يزيد من حدة الألم نفسه، نحن نهوي إلى أسفل في كلّ الحالات، لكن وقع ارتطام أجسادنا هو الحالة المتغيّرة، هناك من يقع على الحجارة حتّى تتكسر عظامه وينفجر رأسه لعدم قدرته على المواصلة وإيمانه الأعمى باللامعنى، وهناك من يرتطم بسرير الأمل، وفراش الوعد، أقصد بذلك أولئك المؤمنين بالخير وقدرة اللّه.

صمتنا قليلاً، وقال ذو الجلباب:

- الآن عُدْ إلى مكانك لتأخذ دواء الجسد، الآن قد أخذتَ دواء العقل والروح.

عقّبت قائلاً:

- إذن أنتَ دواء الروح، وهذا دواء العقل.

أجاب الرجل الإغريقي:

- إنّنا أشبه برمزيْ: الشّكّ والمعرفة.

وسألتُ:

- من أنتما بحقّ اللّه؟

نظرا في وجهَيْ بعضهما، وتبسّما؛ ليجيب الرجل ذو الجلباب:

- أنا بِشْرٌ الحافي.

فيما أجاب الرجل الإغريقي:

- أما أنا فديوجين.

شعرتُ بصدمة كبيرة تفوح داخلي، تسارعتْ دقّات قلبي حتّى كاد يقف، شعرتُ بدوارٍ شديد، وانهرتُ على الأرض، كلُّ ما كان باستطاعتي سماعه هو صوت بشر الحافي: "أستغفر اللّه، أستغفر اللّه، أستغفر اللّه"؛ لينكمش جفناي، ويغمى علي.

صباحًا، أستفيق هلعًا، وأنا ساجد على الأرض كما نمتُ البارحة، واحتجتُ مدّة طويلة؛ لأستوعب أنّ كلّ ذلك كان مجرد حلم جميل، لقد كنتُ أحلم فقط، وتبادر إلى ذهني الشكّ، كيف أحصل على الإجابة عبثًا؟ لا شيء عبثيّ، لكنّ الأهمّ كان أنّني حصلتُ على المعنى، على الإجابة الأبديّة، كلمة اللّه وطريق الثواب، إنّ هذا الأمر لا يُنسى أبدًا، فأستغفرُ ربِّي ما حييتُ، ذلك أعظم ثواب.

زوايا منفرجة

ناصر خليل

-١-

-أستغفر اللّه العظيم، أستغفر اللّه العظيم!

صرخ حساني السائق بصوت عالٍ؛ بعد اصطدام جسد شخصٍ ما بمقدمة سيارته، كان صاحب الجسد في طريقه لعبور الشارع، الكمامة التي تغطي وجه صاحب الجسد لم تمنع صرخاته من ملء الفراغ حولنا... كاد وجهي أنا -الراكب الوحيد- أن يصطدم بقوة بخلفية المقعد الأمامي للسيارة؛ حيث يجلس السائق بعد التوقّف المفاجئ. بدا وجه السائق شاحبًا... مصفّرًا، وكلتا عينيه لا يقرّ لهما قرار، لسانه لا يكفّ عن قول: "لا حول ولا قوة إلا باللّه"، نزع جسده الملتصق من المقعد، فتح الباب ثم ترجّل، حافظ على استقامة ساقيه، تقدّم نحو مقدّمة السيارة ليرى ما حدث.

حدث الاصطدام بعد ساعة من مغادرة (التاكسي) المطار... كنت أفكّر في زوجتي وأطفالي الذين ينتظرون عودتي لهم بفارغ صبر، لا أقوى على تحريك ساقيّ المخدَّرتين من هول الصدمة، عقلي مشوّش من الصراخ وصوت الاحتكاك، لا يكفّ عن تكرار فكرة أنّنا قتلنا شخصًا للتّوّ؛ فصرخاته، وشدّة ارتطامه بالأرض؛ تؤكّد أنّ إصابته شديدة وخطيرة، تمنّيت أن يكون بخير حتى لا يزداد الوضع تعقيدًا.

- هل هذا وقته؟!

لقد قطعت مسافات كبيرة من مدينة ريتشموند في أمريكا بالطائرة إلى هنا... ليس بيني وبين منزلي سوى دقائق معدودة، ثم يأتي هذا العابر المتعجل ويوقف كل شيء...

- يا له من حظ عاثر!

أتمنّى أن يكون بخير فأعود إلى بيتي وأولادي وزوجتي الذين ينتظرون عودتي، هذه آخر رحلة جويّة من أمريكا بعد أن أُقفلت جميع المطارات في العالم. أتذكر آخر حديث لزوجتي هند عبر الجوال، وآخر كلمات لها: "أستغفر اللّه العظيم... أستغفر اللّه العظيم!"... **كلماتها المعتادة التي دومًا تردّدها في كلّ حال، كان آخر ما سمعتْه أذناي منها، بنبراتها الخاشعة، وهي تودّعني... بدت من صوتها أنها -متوتّرة إلى حدٍّ ما-، عندما تحدّثنا عن ذلك الوباء الذي يجتاح العالم كلّه، ولم تسلم منه وِلاية فيرجينيا حيث أعمل، لكنها كانت منزعجة أكثر من غربتي، وبعدي عنها وعن الأولاد في هذا الوقت العصيب الذي يمرّ عليها، قالت لي -وهي تحاول بثّ بعض الطمأنينة في روحي-:** "قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا"، **وأضافت:** "علينا أن نأخذ بأسباب النجاة، والنجاة من اللّه"... **ألحّت عليّ أن أعود للوطن في أقرب فرصة، أكّدتُ لها أنه وقت عصيب، وسيمرّ؛ فلا داعي للقلق، أو أن نلغي جداول أعمالنا.**

أنا الآن وحيد في شقتي الصغيرة/إستديو، في شارع دبليو برود الخالي من الناس، والذي يعاني كغيره من شوارع مدينة ريتشموند، كورونا! هذا الكائن اللامرئيّ هزَمنا، وألزمنا بيوتنا دون زعيق أو خطابات تهديد ووعيد، ليس في أمريكا وحدها بل العالم كلّه!

رهين شقتي الصغيرة لا أغادرها إلا لشراء طعام أو دواء، مثل جميع أهل المدينة، الخوف من انتشار كورونا؛ يملأ الأجواء... خوفي أشدّ؛ فأنا منذ صغري أعاني من التهاب رئويّ، وإنفلونزا خفيفة عابرة تهدّني وتلزمني فراشي لأيام...

لم أرَ صديقي رمزي السوري وشريكي في مطعم المأكولات الشرقية منذ أسبوع، نتواصل عبر الجوال، أو الفيسبُك، أو واتساب بعد أن أغلقنا المطعم... ستطول مدة إغلاقه بلا شك وسنخسر كل ما كسبناه من دولارات في السنين السابقة... نغمة رنين من الجوال، ثم يظهر اسم رمزي على شاشته:

- آلووو... كيف حالك يا رمزي؟
- بخير يا صديقي، وأنت؟
- الحمد لله... في مخابئنا إلى حين، لعل الوحش لا يرانا وننجو!

يتنهّد طويلاً، ثم يأتي صوته مشروخًا حزينًا:

- هذا جيّد... لكن هناك ما هو أسوأ من كورونا في عالمنا هذا، صدِّقني يا صديقي!
- أشعر بك وبألمك... لقد بدأ العالم يتألم كما تألمتم!
- ليت الألم اقتصر علينا... يكفي ما قاسيناه!

أغيّر نبرة صوتي لأدير دفّة الحديث بعيدًا عن هذه المنطقة المؤلمة والسوداء في حياة رمزي

- هذا الوقت سيمرّ.
- أتمنّى هذا...

محاولة يائسة من أن أبعده عن التفكير في مأساته، أو أهوّن عليه توابع ما سنلاقيه هنا في ريتشموند، خنقتني دموعي المنهمرة فأنهيت الحديث بكلمة مقتضبة:

- سلام!

صورة عائلتي وأنا وسطهم –خلفية– تملأ شاشة الجوال، على يميني تقف هند، وأمامنا محمد، وابنتي روان، صورة تُخْتَصر فيها كلّ سعادة العالم، الحبّ والهدوء والسلام... يأسرون كلّ من يراها، أين هم الآن؟ بيني وبينهم بحار وجبال وبلاد لا تعدّ ولا تحصى، وعدوٌّ خفيٌّ متربّص في كلّ مكان...

تقفز كلمات هند إلى رأسي طازجة، وكأنها قالتها للتّوّ؛ رغم مرور سنتين عليها: "ربّ هنا... ربّ هناك... الرازق واحد هو الله"، **كان هذا ردّها عندما أبلغتها بقراري أنني سأبقى في ريتشموند، ولن أعود معها ومع طفلينا للوطن، فشلتُ في إقناعها أن أمريكا هي مستقبلنا ومستقبل أولادنا، أصرّت على العودة، وكان لها ما أرادت، اتفقنا أن تعيش هي والطفلين في وطننا وأن أبقى هنا للعمل حتى حين.**

أترك الجوال. أتجه إلى الثلاجة، أجد طعامًا، أتناوله وأتبعه بكوب ماء. أبتلع قرص مضادٍّ حيويّ، أمسك الريموت كنترول، أضغط زرّ التشغيل، تضيء شاشة التلفزيون، نشرات الأخبار والأحاديث الصحفية كلها عن (كورونا – كوفيد ١٩):

– لقد صار هذا اللامرئيّ نجمًا في كلّ محطات الإعلام بلا منافس!

البيانات والإحصائيات لا تبشّر بخير أو انحسار للمرض، زيادة في عدد المصابين والمتوفّين، تدابير صارمة في كلّ البلاد، وحظر وغلق للمصانع ومكاتب العمل، كلّ هذا يؤكّد أنه لا عودة قريبة إلى استئناف الحياة أو العمل. قالتها المذيعة، وهي تكاد تجهش بالبكاء:

– There is nothing to do with Covid 19. Say goodbye to your family!

الأطباء، العلماء، السياسيون، رجال الدين... الكلّ أصابته حالة (قلّة الحيلة)، وأعلنوا عجزهم التامّ، وأنه ليس لديهم ما يفعلونه مع هذه الجائحة التي حتمًا ستلتهم العالم في جوفها الأسود الحالك. كلّ ما حولي يؤثر عليّ وعلى قراري الذي أحاول أن أتخذه. إشعار من الجوال برسالة نصية من زوجتي: "أنا ومحمد وروان نحبّك يا ناجي... نحن في انتظارك في بيتنا"، **هذا ما كان ينقصك يا ناجي، ما قيمة الحياة دون من نحبّ بل ما هو المغزى من أن نموت ولا نرى ونشبع من أحبتنا، الموت خارج شقتي يسبح بحرية وسلاسة في الهواء، ما إن يراك حتى يقتحم جوفك ومنه لرئتيك، ثم يحوّلهما إلى قطعتي فحم أسود....:**

– ناجي... إن كان هناك موت؛ فليكن بين أهلك وعلى تراب بلدك!

– لكن رمزي صديقي هل أتركه هنا وحيدًا في ريتشموند؟

– تبدو لي أنانية مقيتة؛ سأقنعه أن يأتي معي إلى بلدي... أتصل به:

– صديقي رمزي كيف حالك؟

– بخير والحمد لله... هل من جديد؟

– لا أدرى يا صديقي... ولكن ما رأيك في إجازة نقضيها في بلدي؟

- شعور طيّب منك... أنت تريد أن تكون مع عائلتك ولا تريد أن تترك صديقك هنا.
- أنت ذكيّ جدًّا يا رمزي... باللّه عليك لا ترفض!
- لا يا صديقي أنا لن أغادر ريتشموند، وقائمة الأسباب طويلة.
- لا أستطيع أن أتركك هنا لوحدك!
- لا عليك يا صديقي؛ فأنا ألِفتُ ذلك منذ زمن.
- أعلم يا رمزي، وكان اللّه في عونك!
- ناجي... لك عائلة وتحتاجك في هذا الوقت، وليس من الحكمة تركها من أجلي... مقايضة خاسرة.
- رمزي أنت صديقي وأخ لم تلده أمّي.
- اذهب لعائلتك يا ناجي، وبعد انتهاء الأزمة عُد لـ(ريتشموند)؛ ستجدني في انتظارك... أنت تعلم أنه ليس لي مكان آخر فأقصده!

بدا صوته يضعف ونبرته تخفت، خنقتني دموعي عندما أكمل حديثه قائلاً:

- لا تتأخر؛ فالمطارات على وشك الإغلاق التامّ، فلتغادر الليلة ولا تنتظر الصباح... عذرًا لن أتي لأودعك، فلم أعُد قادرًا على تحمل المزيد من آلام الوداع.
- إلى لقاء يا صديقي... اللّه معك.

لم أنتظر، جهزت حقيبتي، اتّصلت بخدمة (التاكسي)، ذهبت للمطار، علمت أن هناك آخر رحلة جوية، حجزت مقعدًا فيها.

-٢-

- "لا حول ولا قوة إلا باللّه العليّ العظيم... لا حول ولا قوة إلا باللّه العليّ العظيم...!"

أحاول أن أبقي ساقيّ مستقيمتين، أدفع فيهما بعضًا ممّا تبقّى من قوّتي؛ حتى لا ينهار جسدي، أتقدّم نحو مقدمة سيارتي؛ لأرى تلك المصيبة التي حلّت بي هذا المساء، أرجو اللّه أن يكون حيًّا ولم يمت هذا العابر المتعجّل،

رغم أن ما حدث ليس غلطتي فلقد ظهر فجأة أمام السيارة، أنظر للراكب معي والذي اصطحبته من المطار، وقد تلكّأ في النزول من السيارة ليرى ما حدث...

-ليست غلطتي يا أستاذ... أنت شاهد... لقد رأيتَ ما حدث!

لم يردّ، أو حتى يفتح فمه بكلمة واحدة، فقط هو واقف مأخوذ ومشتّت، يسعل بشدة، يضرب كفّيه ببعضهما.

- "ما الذي أخرجك يا حساني في هذا الوقت العصيب من بيتك!"، **أحدّث نفسي، وألومها على خروجي للعمل هذا اليوم ولا سيّما أنّنا دخلنا في وقت الحظر، إن نجونا من تهمة القتل، فلن ننجو من تهمة خرق الحظر، ودفع غرامة (أربعة آلاف جنيه)، وأين الأربعة آلاف جنيه؟ ولو كانت معي ما كنت خرجت اليوم.**

أقف كلّ يوم خارج المطار، أنتظر دوري مع زملائي سائقي (التاكسيات/الأجرة)، والكلّ يمنّي نفسه بدور واحد (توصيلة لزبون)؛ فيعود لأهله ببعض الطعام ولوازم المعيشة، السعيد منّا من يدرك ذلك... الأكثر سعادة هو من ليس عليه أقساط يدفعها ثمنًا لسيارته -أنا لست منهم-؛ ففي نهاية كلّ شهر مطلوب منّي (ثلاثة آلاف جنيه) قسطًا، وأيضًا أنا أعول أسرة من خمسة أفراد.

في الأيّام العادية بالكاد أتحصّل على ما يكفيني أنا وأسرتي حتى جاءت كورونا؛ وقلبت حياتنا رأسًا على عقب. الإغلاق للمحلاّت والمصانع، وتقييد حركة النقل والانتقال داخل المدينة، خوف الناس من الخروج من المنازل والتحرك... كلّ هذا أصابنا بالركود وضرب معيشتنا في مقتل.

- "أنت نحس وفقري يا حساني!"... **حتى التوصيلة التي فزتُ بها اليوم تنتهي نهاية مأساوية: قتيل في رقبتي، وغرامة حظر، وقسم شرطة، وسين وجيم، ومن المؤكّد أنه سيتمّ سحب رخصة قيادتي، وإن عدت لبيتي سأعود خالي الوفاض...**

- "حساني عد إلى صوابك... اذكر ربّك، واستغفره كما تفعل دائمًا"

-"أستغفر اللّه العظيم... أستغفر اللّه العظيم...!"

كان دوري عندما خرج -هذا الراكب- (ناجي) من بوابة المطار، وكمامة على وجهه، وفي يده حقيبة سفر متوسطة الحجم، تقدّمت نحوه، وحملت الحقيبة، ووضعتها في مؤخرة السيارة، ثمّ فتحت له الباب الخلفي، ركب، فأغلقته خلفه، عقمت يدي بالمطهّر رغم أنني أرتدي قفازات، قمت بمسح مقود السيارة بمناديل ورقية مبلّلة بكلور ومعطر، أحكمت الكمامة على فمي وأنفي، طقوس (كورونية) جديدة نمارسها كلّ يوم، قدت السيارة في شوارع شبه خالية؛ لأنّ وقت سريان الحظر سيبدأ بعد ساعة ونصف في السابعة تمامًا...

- حمد الله على سلامتك!
- شكرًا...!
- العنوان؟
- وسط البلد... شارع... عليك أن تسرع قليلاً قبل أن يبدأ الحظر...
- سنصل إن شاء الله قبل بداية الحظر، فلا داعي للسرعة.
- أنت أدرى يا...
- (حساني) هذا هو اسمي.
- كيف حال البلد يا حساني؟
- كما ترى... الشوارع خالية، المحلات مغلقة، الحال أسوأ، الخوف عملة رائجة!

لم يعلّق أو يسترسل في الحديث معي. أو لعلّي هيجت مخاوفه، فآثر الصمت. لم ألحّ عليه أو أتطفّل، يبدو مرهقًا من طول السفر. عطس بقوّة... ارتجف معها قلبي، قمت برشّ مطهرً وعطر في فضاء السيارة، تأكّدت أن كمامتي تغطي أنفي وفمي. رغم كل هذا... الحمد لله سأعود إلى بيتي بطعام يكفينا اليوم، أمّا الغد؛ فالله موجود، وقادر على كلّ شيء: "ركّز في الطريق يا حساني".

اقتربنا... كأنّني أقود داخل حلم؛ فشوارع وسط البلد خالية، كلّ الأبواب موصدة، عربات الشرطة من آن لآخر تمرق بجوارنا، صرخات من بعض المجنّدين منبّهة عن قرب دخول وقت الحظر، أستدير يمينًا، هو غارق في بحر صمته ينظر عبر النافذة، تُقبّل عيناه كلّ ما تراه. فجأة يمرّ شخص

مسرعًا من على يسار الشارع، عابرًا الشارع دون أن ينتبه لوجودنا في مساره، حاولت تفاديه؛ لكن صدمتْه مقدّمةُ السيارة بشدّة، يصرخ، يسقط ويغيب عن ناظري، أضغط المكابح؛ فتتوقّف السيارة على الفور، تصطدم رأس رفيقي الراكب بخلفية المقعد الذي أجلس فيه، يفيق من غفلته... أفتح الباب، أخرج مسرعًا... أرى الذي صدمتُه للتوّ ممدّدًا فوق الإسفلت، يتأوّه ممسكًا برجله اليمنى، تسيل من رأسه دماء فوق وجهه، ينظر إليّ في غضب، أبادره بالقول:

-هل أنت بخير ... أنت المخطئ، لقد مررت أمامي فجأة دون أن تنظر!

يتأوّه ولا يردّ.

أنزل على ركبتي بجواره، أفحص جسده بعيني ليطمئن قلبي أنه أقرب إلى الحياة من الموت.

-رُدّ عليّ ... هل أنت بخير؟

-ماذا ترى؟

-أراك بخير... فقط بعض الرضوض.

أرى الراكب فوق رأسينا يسعل بشدة، وبدا وجهه محمرًا، تمتم بكلمات لم أسمعها جيّدًا، من الواضح أنه مستاء وحزين من ذلك التأخير وهذا الموقف القاسي.

-٣-

-أستغفر اللّه العظيم! أستغفر اللّه العظيم...!

هذا ما كنت أردّده بصوت عالٍ عندما أتذكر كلمات مهران التي كانت تشغل فكري، كان رأسي يتمدّد من صراع الأفكار داخله، لم أنتبه للطريق عندما صدمتني سيارة لم أرها، لكن الاصطدام القوي أسقطني أرضًا، شعرت بألم رهيب في ساقي اليمنى، من المؤكّد أنّها كُسرت.

لقد انقبض قلبي منذ الصباح عندما أخبرني الشقيّ مهران برغبته في مشاركتي له بسرقة السوبر ماركت في نهاية شارعنا الذي نسكن فيه أثناء

وقت الحظر، عندما صارحته برفضي؛ قال لي بالحرف الواحد:-"عيالك حتأكلهم إيه يا (منفي)... أسبوعين دلوقتي من غير شغل!"

مسّ وترًا مشدودًا داخلي، فأصدر نغمة نشاز قوية، أيقظتني من نشوة رفضي، رمت بي على صخر الواقع الصلد، أسبوعان مرّا ولم أحظَ بـ(يوميّة) واحدة منذ أن ظهر الوباء في البلاد، وكأنه كان ينقصنا نحن عمّال (اليومية) قدومه ،نحن بالكاد نعيش حياة الكفاف في الظروف العادية، الجوعى لا يُسكت جوعَهم الحديثُ عن الصبر والفرجِ الغائب، وكلماتٌ كثيرة لا تصلح للمضغ، ولا تشبع بطونا خاوية، للجوع ربٌّ واحد يؤمن به ويكفر بما عداه؛ ربُّه الطعام، لا الكلمات، مهما كان سحرها وقوتها... لا أملك قرشًا واحدًا مدّخرًا، لا تملك زوجتي ذهبًا في ساعديها، ولا في رقبتها، ولا في أذنيها، كلّ ما أملكه قوتي البدنية، أؤجرها لمن يريد، أنا عامل بسيط، كلّ يوم في مهنة مختلفة، تراني في مواقع البناء، أحمل الرمل والطوب والإسمنت والأخشاب، أو تلمحني ذات يوم أحمل أثاثًا فوق ظهري وأصعد به الدرج للأدوار العليا أو... أو...

كلّ شيء توقّف من حولي، وكأن الدنيا دخلت إلى كهف في سبات طويل... سكتُّ لحظتها ولم أردّ، فأجهز على تردّدي قائلاً:

-ها... ها...؟ السكوت علامة الرضا يا (منفي)!

-موش عارف أقولك إيه يا مهران!

-لا تقول ولا تعيد ... أشوفك عند السوبر ماركت إياه قبل بداية الحظر...

شرح لي مهران قبل أن يغادر خطّته التي سنسرق بها المتجر الكبير، ودوري فيها بالتفصيل المملّ، وأكّد لي أنني سآخذ ما أستطيع حمله من مواد غذائية تكفي عائلتي لأسابيع، ذكّرني بأننا سنستخدم (توكتوك) نحمل فوقه ما نريد، أكّد لي أنّه لن يمدّ إليّ أحد يد المساعدة؛ فالكلّ لديه ما يشغله، ولن يتذكّرني أحد وسط هذه الفوضى العارمة، وعليّ أن أتدبر أموري وهذه فرصة لن تتكرّر.

-"هذا اختبار حقيقيّ لك يا منفي"

طوال حياتي أنا لم أعتد أن أنظر إلى ما في أيدي الناس، أو أتطلّع لأن أكون مثلهم يومًا ما، راضٍ بحياتي التي منحني إياها القدير، أتحرّى الحلال

في كلّ عمل أقوم به وأحرص أن تكون جنيهاتي القليلة من حلال، لم أفكّر في السرقة طوال حياتي؛ رغم ما مررت به من صعاب جمّة، لكن هذه المرّة الوضع أكثر صعوبة، والكلّ لديه ما يشغله فلِمَن ألجأ؟ حتّى الجمعيات الأهليّة لم تسلم من المعارك السياسية؛ فتوقفتْ عن العمل منذ زمن، الشؤون الاجتماعية درب طويل من الإجراءات، الروتين الذي يشبه سلحفاة تزحف فوق حدِّ الموسى، الجوعى لن ينتظروا هذا الكمّ الكبير من الموافقات والتوقيعات للسادة المسؤولين المتخمين أصحاب الكروش الكبيرة... هذا إن صدّقوا احتياجي. همس لي قريني الذي يلازمني كظلّي: "ما استُكرِهتم عليه"، ثم واصل همسه: "أنت في حكم المضطر"، أجهزتْ كلماتُه على ما تبقّى من عقل أو فكرة للتراجع عن تنفيذ السرقة.

جاء الموعد المحدّد، وجدتُني سائرًا ومتّجهًا ناحية موقع المتجر، أقدّم رجلاً وأؤخر الأخرى، فكّرت مرات كثيرة في العودة، ولكن صوت أطفالي الجوعى كان يدفعني بقوة من الخلف للإمام، فأواصل سيري، تتلاشى من حولي البنايات، يختفي الإسفلت من تحت قدمي، ألوذ بكلماتي وأردّدها لعلها تخفّف عني ما أشعر به:

-أستغفر اللّه العظيم... أستغفر اللّه العظيم...!

فجأة يصدمني جسم صلب بقوة، أفقد توازني، أسقط على ظهري، تلتوي ساقي تحت ثقل جسدي، أسمع صوت طقطقة الكسر، ألم لا يطاق، لا أملك معه سوى الصراخ بكل قوتي، ترتطم رأسي بالإسفلت، غمامة بيضاء تغلق منافذ عيني للعالم، الرؤية ضبابية، بالكاد أرى هذا الواقف فوق رأسي وتتحرّك شفتاه بكلام متواصل، لا أسمعه جيّدًا... يدٌ تتسلّل خلف ظهري، ترفعني لأعلى، وصدر يسندني من الخلف، نصف وجه خلف كمامة زرقاء، خائفًا ومضطربًا؛ تراه عيناي، يمسح بمنديل دماءَ تسيل من رأسي ووجهي وكلمات بدت متوسلة:

- هل أنت بخير؟

أفكر؛ أيّ خير يقصده هذا الرجل؟ وأنا تحت عجلات سيارته، أقرب للموت منّي للحياة! وماذا عن الألم الرهيب في ساقي، ومن أين هذا الدم الذي يغطّي وجهي، أصمت... أتذكر مهران وانتظاره لي، فلينتظر ما شاء

له الانتظار؛ فمن المؤكّد أنّني لستُ بقادر على الذهاب إليه. هل هذا عقاب من اللّه على مخالفتي إيّاه، وسوء ظنّي برحمته وفضله؟ أم أنّه رحمة منه؛ لأن هذا الحادث منعني من ارتكاب ذنب وجريمة؟ تهمي عيناي بالدموع وأصرخ:

-أستغفر اللّه العظيم! أستغفر اللّه العظيم...!

سعال، ثمّ صوت جديد تسمعه أذناي من شخص فوق رأسينا يوجّه حديثه للذي يسندني:

-هل نتّصل بالإسعاف؟

يتردّد الآخر في الإجابة، أوفّر عليه الردّ، وأقول في حزم:

-مفيش داعي... خذوني لأقرب مستشفى!

يسعل الواقف بشدة مرة ثانية من خلف الكمامة حتى تدمع عيناه، يتبرّم، يتمتم بكلمات مبهمة، يشيح بوجهه، يضرب كفًا بكفّ، يناديه الآخر:

-ساعدني في رفعه ووضعه في السيارة.

دقائق من التأوّهات والصرخات مع كلّ حركة بين أياديهم مرّت كأنها سنين عجاف، حتى أدخلوني السيارة وأضجعوني في المقعد الخلفي ثم تبادلا حديثًا مقتضبًا، وركبا، ثم انطلق السائق. سأله الآخر عن شاحن جوال؛ لأن هاتفه فرغت طاقة بطاريته فأجابه بالنفي.

في المستشفى لا تستطيع أن تميّز أو تتعرف على أحد؛ فالكلّ يضع كمامة فوق فمه وأنفه، والبعض يضع قناعًا كاملاً فوق وجهه... لا نظام ولا التزام بقواعد السلامة والتباعد خوفًا من العدوى، وكأنه ليس هناك كورونا، السائق كان واقفًا بجوار (الترولي) الذي يحملني، بينما الآخر تكوّم فوق أحد المقاعد، بدا وجهه محمرًا، لم يتوقّف عن العطس والسعال، فحصني الطبيب، أوصى بأشعة على كامل الجسم، ولكنه جزم بكسر ساقي اليمنى، وأنها تحتاج إلى جبيرة، عندما رأى المتكوّم فوق الكرسي وحالته غير المطمئنة، استدعى ممرّضًا، وأمره أن يأخذه لغرفة مجاورة؛ للكشف عليه، وسألنا:

-هل هو معكم؟

أجاب السائق بالإيجاب.

-يجب أن يتم فحصكم واختبار كورونا، هناك اشتباه في إصابته بالفيروس.

لم أتكلّم ولكن السائق قال في يأس ورجاء:

- ضروري يا دكتور الفحص!

- نعم... لا نقاش في هذا؛ لسلامتكم وسلامة غيركم... إذا كانت نتيجة الفحص سلبية؛ يمكنكم أن تغادروا المستشفى، أمّا إذا كان العكس؛ ستدخلون في حجر صحي لأسبوعين.

الأوضاع تزدادا سوءًا ... ستتأخر عودة العائد إلى أهله، أصبحت قدمي مكسورة فلا قدرة لي على العمل لشهور حتى تشفى، السائق المسكين ضاعت عليه أجرة اليوم وربما لأيام قادمة إذا كان مصابًا، ألوذ بنفسي، ألومها على ما كانت على وشك صنعه، أطلب من القدير الرحمة والمغفرة، أردّد:

-أستغفر اللّه العظيم! أستغفر اللّه العظيم...!

-٤-

هناك عند المتجر الكبير والأضواء خافتة، ساعتان من سريان الحظر، بعد يأسه من حضور صاحبه، خرج مهران كقطٍّ بريٍّ من وراء إحدى العمارات، وقف أمام الباب الخلفيّ للمتجر الذي يطلّ على حارة جانبية ضيقة، وشرع في تنفيذ خطته، فتح الأقفال بمهارة ساحرٍ متمرّس، ثم دخل المتجر، بدأ في وضع ما أخذه في (التوكتوك)، نجحت خطته في السرقة، ولكن قبل أن يتحرك؛ كان محاطًا بثلاث عربات شرطة، وبعشرات الجنود يحيطونه؛ وفوهات البنادق مصوّبة نحوه، رفع يديه لأعلى؛ مستسلمًا، ونادبًا حظه العاثر.

منتصف الليل... هناك في شارع جانبي قبل المنطقة التي يقطن فيها السائق حساني يقف شابّان فتيّان بالكاد تظهر ملامحهما في الظلام، يبدو على وجهيهما الغضب الشديد، وأن هناك ما يؤجّج هذا الغضب، يتحدث أحدهما موجّهًا كلامه للآخر في لوم وتقريع:

-تأخر حساني...!

-موعد عودته الآن!

-متأكّد؟

-متأكّد!

ينظران إلى الشارع بلهفة المنتظر، يتحسّسان القادم، ولكنه لا يظهر في مرمى أبصارهم.

-ضاعت العملية... طارت العربية الليلة!

-كلّ حاجة كانت جاهزة والخطة تمام!

-وإيه الفايده ... مصيدة من غير فار!

-خسارة... تاكسي حساني جديد، وكنا حندبحه ونقبض قرشين حلوين يا فقري!

سرى الليل ولم يظهر حساني بسيارته على الطريق، لم يطيقا صبرًا على الانتظار فانسحبا من المكان خائبين.

هناك في بيت ناجي... أُطفئت الأنوار، سكتت الأصوات، بعد فشل الاتّصال بناجي مرات عديدة، نامت العيون من التعب واليأس إلا هند، ظلت يَقْظى حتى أذَان الفجر، صلّت، ثم بدأت في الدعاء إلى اللّه أن يهيّأ الخير لعائلتها، ويردّ زوجها سالمًا غانمًا، أمسكت مسبحتها وظلّت تردد:

-أستغفر اللّه العظيم! أستغفر اللّه العظيم...!

أشرقت الشمس، وهند لم تتم لحظة واحدة، وفجأة نغمة رنين جوال تخرجها من شرودها، يظهر اسم ناجي على شاشته، تردّ بسرعة وتصرخ:

-أين أنت يا ناجي... قتلنا القلق عليك!

-في المستشفى!

-يا إلهي... هل أنت بخير؟!

-نعم. أنا بخير... (التاكسي) الذي كنت أستقلّه صدم شخصًا وكُسرت ساقه!

-لا حول ولا قوة إلا باللّه... وأنت؟

-سأتأخر قليلاً...أخذ الأطباء عينة لفحصها اشتباه كورونا.

شردت قليلاً، وكفت عن الكلام، ثم قالت:

-قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا يا زوجي العزيز... إن كانت النتيجة سلبية؛ فستعود إلينا معافى أما إن غير ذلك؛ فسيشفيك اللّه بإذنه؛ فلا تبتئس!

-لم أتوقّع هذا يا هند، فلقد أخرجني صديق قديم يعمل في المطار دون إجراءات صحيّة، كم كنت أنانيًّا! فكّرت في نفسي، ولم أفكّر في عائلتي وأولادي وغيرهم... سامحيني!

-الحمد للّه لقد نجا أولادنا – هذا إن كنتُ مصابًا لا قدر اللّه – وإن كان؛ فاللّه المستعان.

-تذكّر يا ناجي قوله –تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

-ونعم باللّه!

-الذي يوشك على الغرق يريد طوق نجاة، وهكذا الدنيا بحر من المصائب والاستغفار طوق النجاة لنا... داوم عليه وسيعافيك اللّه.

-ليت لي مثل إيمانك يا هند، ويقينك الثابت.

-اللّه أدعو لك... وسننتظرك اليوم أو بعد حين.

تنهي الحديث، ودموع تملأ عينيها، طقطقات حبات المسبحة بين أصابعها وصوتها الخاشع يتردّد في جنبات البيت:

-أستغفر اللّه العظيم! أستغفر اللّه العظيم...!

الوجه الآخر من كوفيد 19

نهى يوسف حمد الله

صرخ... صرختُ...

اشتدّ الشجار، وارتفعتْ أصواتنا. بدأ خالد جولة الغضب المعتادة؛ حطّم الأشياء، كسر طبقًا على الأرض، تناثرتْ قطع الزجاج مع شظايا روحي في كلّ مكان، طرق الباب خلفه، وخرج، بعد أن ختم المشهد بعبارته الشهيرة: "هذا البيت مقبرة"...

مَن مات هنا؟! الحبّ؟ نحن؟ أم الطبق؟

خرج من دون أن يأكل شيئًا، لم ينتظر أن ينضج الطعام. تحاملتُ، رفعتُ رأسي الذي طأطأه الدمع، تصنّعتُ أني بخير، وافترضتُ بأنّ الأمور ستكون في نهاية اليوم على ما يرام، تظاهرتُ بأنّ الأولاد لم يسمعوا جدالنا اليوميّ العقيم، وبأنّ رؤوس الجيران لا تُطلّ علينا من النوافذ، ثم أكملتُ عملي في المطبخ، وإعداد طعام الغداء، وتنظيف ما أحدثه خالد من فوضى. كان عليّ أن أسرع في الانتهاء من أعمال البيت قبل أذان المغرب، فهناك كومة من أوراق الامتحانات تنتظرني لرصد النتائج على سجلّ العلامات.

مشهدٌ مسائيّ متكرّر، وأنا ممثّلة بارعة، لدرجة أنّه لا أحد يَلْحَظ انكساري، يجرحني ويغادر، يخذلني، ويُعمّق حَفْر الخندق بيننا. قلوبُنا متنافرة، لا أحد يفهم الآخر رغم اجتماعنا تحت سقف واحد. كنتُ أغسل الملاعق والأطباق، وفي ذهني لاقط لمئات الأفكار الرديئة، يَستحضرني حديث د. جاسم المطوع عن الانفصال العاطفي وعن الأمور الستة التي تقتل الحبّ، أكاد أجزم أنّها جميعًا تحدث الآن دفعة واحدة. هل السبب رتابة الحياة الزوجية؟ أم أنّنا – ومنذ البداية– تَغاضيْنا عن الكثير؛ لنتفاجأ بعد الأربعين بمسافة غامضة تفصلنا تجاوزت الأربعين ميلاً؟ الشجار الأخير لم يكن يُشبه شجارَنا المعتاد! لا

أعرف لِمَ بدا مختلفًا... مؤلمًا... مدمّرًا! وكأنّ كلماته الختامية أوجعتْني بقَدْر المرارة التي نطقها بها.

أحكمتُ إغلاق النوافذ؛ فقد غارتْ على عمّان عاصفة مفاجئة من الغبار، عاصفة رملية نادرة صبغت السماء، وعكّرت الأجواء، وخنقت الشوارع، ودثّرتْ ملامح الأرصفة والأبنية. أحسستُ فجأة بغَصّة، بطعم الرملِ في حلقي! هل الجوّ المغبر كان السبب؟ أم كلماته؟ "هذا البيت مقبرة"؛ قبرتْني تحت التراب... كدتُ أختنق وأموت حزنًا.

حضر الأولاد إلى المائدة. لم أنتظر خالدًا، لن يعود إلا فجرًا حتى يفرغ من لعب الأوراق (الشدّة) مع رفاقه. على المائدة لا تَسمع صوت أحد؛ لا تعليق، لا شكرًا ماما على الغداء، لا همس... قرقعة الملاعق والأطباق فحسب، كانت الوحيدة التي تثرثر، فالرضيعة نائمة، وصهيب لا يتكلم منذ ولادته؛ تجاوز ثمانية أعوام ولم ينطق إلا بهمهمات غير مفهومة، رغم أني ألحقتُه بمدرسة خاصّة لأطفال متلازمة داون منذ العام الفائت، كنتُ أتأمّل بعد اختلاطه مع الآخرين، في مكان معدّ ومهيأ ويراعي حالته الصحية، أن يتحسّن نطقه. عائلتي أتعبتْها الخيبات، وكأنّ المتنبّي كان يقصدنا حينما قال: "ما كلّ ما يتمنّى المرء يُدركه... تجري الرياح بما لا تشتهي **السّفن"، لم تحمل الحياة لنا سوى بعض الأمنيات التي لم تصعد نحو النجوم، والكثير من تجاعيد الحزن بين الحاجبين. بتّ تلك الليلة في حالة طاغية من الحزن، كاد يقتلني، ويترأس القائمة السوداء من المجرمين المطلوبين والأكثر شرّا على الإطلاق، هو، بلا شك، القاتل رقم واحد في هذا العالم.**

التهمتْ علياء وجبتها في لقمة واحدة، وحدثتْني بفم محشور بالطعام، ثم عادتْ إلى حجرتها؛ كانت على عجلة من أمرها لحلّ المزيد من المسائل الرياضية. بعد دقائق جاءتْ تسألني عن حلّ سؤال في كتاب (الفاتن) للأستاذ محمّد نمر، هو، بالتحديد، الكتاب الرابع في الرياضيات الذي تقتنيه علياء. لماذا يخاف طلاب التوجيهي من الرياضيات بالذات؟! هل المسألة نفسيّة بشأن صياغة الأسئلة على نحو معقّد؟ أم أنه الذعر الذي يبثّه الآباء في الأبناء؟ لا أدافع عن الرياضيات؛ لأني معلمة متخصّصة فيه، بل لأنّه غالبًا ما يكون المتّهم

الأوّل –ظلمًا– في تدمير مصائر الطلاب. ألقيتُ نظرة... كانت خطوات حلّها صحيحة، لولا أنّها ارتكبتْ خطأ تافهًا صغيرًا في أولويّات العمليّات الحسابيّة.

المسائل الرياضية وحياتي سواء؛ فحينما أخطئ خطأ صغيرًا، غير مقصود، ينهار كلّ شيء في لحظات، وتتعقّد وتتأزّم التبعات، وفجأة تُصبح النتائج غير محمودة. هكذا كان خطئي مع خالد، تافهًا وصغيرًا، في معظم الأوقات... لكنّ خالد زأر غاضبًا، وبدأ يُقلّل من شأني، دون أنْ يبالي بوصولي متعبة بعد يوم مدرسيّ شاقّ، دون أنْ يُقدّر مسؤوليّتي تجاه طفلة رضيعة لم تتجاوز أربعة أشهر. أنا وحدي مَن يُدير المنزل، وحدي أنظف وأطبخ وأغسل، وأهتمّ بالجميع، وأهتمّ بصبيّ من ذوي الاحتياجات الخاصة، وحدي مسؤولة عن ابنة في مرحلة التوجيهي، أصلح الأشياء إذا ما انكسرت أو تعطّلتْ، وأحضر حاجيات المنزل، وأصطحب الجميع إلى مدارسهم... أمّا خالد فمسؤوليّته لا تتعدّى أبواب شركته، ثمّ يَحضر في النهاية إلى المنزل، ليَخرج مارِدُ غضبه، ويتّسع الثقب بيننا، فلا تَسُدّه رقعة، ويبقى ثوب السلام في منزلنا مخروقًا. أخطاء تافهة تفجّر بيوتا... تبًّا للغضب، وتبًّا لمن لا يتقبّلوننا مخطئين.

في صباح اليوم التالي أعلنتْ وزارة الصحّة عن تسجيل ستّ إصابات بمرض كورونا في الأردنّ، كان الخبر صادمًا! كيف يصل فيروس في الصين إلى عمّان في أربعة أشهر؟! هل المسألة بهذه الجديّة؟ وزارة التربية والتعليم أعلنتْ تعطيل كافّة المدارس والجامعات لمدّة أسبوعين؛ خوفًا من انتشار العدوى بين المواطنين، كما صدر قرارٌ بمَنع التجمّعات، وإلغاء المناسبات الوطنية والاجتماعية، وإغلاق الأسواق التجارية الكبيرة، والحدائق العامّة، والمساجد، والكنائس...

لم يتوقّف هاتفي عن الرنين. اتّصلتْ أوّلا أختي لمى، ووضّحتْ نظريّتها حول فيروس كوفيد ١٩، الذي تكتّمتْ عليه الصين منذ زمن، وقاموا بتصنيعه في إحدى مختبراتهم العلمية، لكنّ خطبًا ما حدث، فخرج الفيروس من المختبر. لم أَملِ لنظريّتها تلك، رغم كونها متماشية مع نظريّتي عن (الأخطاء الصغيرة)، والتي غالبًا ما تكون تافهة غير مقصودة، فيتبعها دمار كبير.

صديقتي مرح كان لها رأي آخر، تقول إنّها كذبة بيولوجية، أشبه بمؤامرة مدبّرة. زميلاتي في المدرسة قُلن عكس ذلك، فكوفيد، حسب ظنّهن، غضب من اللّه لإنذار الدول التي تمَادتْ في طغيانها وفجورها. أمّي تقول إنه امتحان واسع النطاق، يختبر اللّه فيه صبرنا، وصدق لجوئنا إليه. أميل أكثر لما تقوله أمي، فأخذتُ أكثِر من الاستغفار وأكثّف الدعاء لصلاح الحال. الجميع متوتّرون، وخائفون، ويَتوقّعون أنّ تطول مدّة إغلاق المدارس والمؤسّسات، ولربمّا تمتدّ لنهاية العام. المعظم بدؤوا بشراء المنظفات والمعقمات، وعلب الكمامات والقفازات. لا أنكر أني خفت أيضا، فاستودعت أولادي عند اللّه. حينما فعلت ذلك، شيء ما في داخلي سكن، نما وأورق، زرع الاطمئنان في جلبة الأفكار... ما أعمق الأمان الذي غمرني حينما تبرأتُ من حولي وقوتي، وتوكلتُ على قوة العظيم الجبّار... وأخذت أردّد: "فاللّه خير حافظا".

حفظتُ أذكار الصباح والمساء، وحفّظتها لأولادي، خاصة: "بسم اللّه الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم"، و"اللهمّ عافني في بدني، اللهمّ عافني في سمعي، اللهمّ عافني في بصري". برأيي كلّ جديد مخيف، خاصّة على هذا المستوى الكبير من الانتشار وعدم السيطرة، فالوفيات في تزايد، والأمر خارج عن السيطرة، لكني اتخذتُ التدابير الوقائيّة بشراء المعقّمات والكمامات. استلزمني الشراء ثلاث ساعات كي أجد ما يلزم، فلقد أصبحت الكمامات غير متوفّرة في ذلك الوقت بالتحديد. ثم فكّرت بالأمر بشكل إيجابيّ، فخبر العطلة المدرسية، بالنسبة لمعلمة مجهدة وأمّ مستنزفة، مفرحٌ بلا شكّ، كنت أشعر بالإرهاق، ولم أنجز بعد كومة الامتحانات، ولا أيّة سجلات مدرسية. كنت أحتاج لإجازة سحريّة من العمل، وها هي الأمنية قد تحقّقت فعلا.

اتّصلتُ بوالدي في قطر. لم يكن قلقًا من الوضع الذي وُصِف بالخطير، فهو يبقى في بيته ولا يغادره. لا أعرف كيف سيعود أبي بعد تعليق جميع الرحلات الجوية، وإغلاق الحدود البرية والبحرية، ومنع المواطنين من السفر. لم أشعر بالقلق على والدي بالقدر الذي شعرته على والدتي، فلقد كانت وحيدة في بيتها، إذ رفضتْ أن تترك منزلها وتحَضر إلى منزلي، أو منزل أختي لمى في إربد، نظرا لمنع التنقّل بين المحافظات.

بعد قليل، خرج خالد ليدير أعماله في الشركة. كان وجهه لا يُخفي آثار الشرود والقلق؛ فمكتب السياحة والسفر ينظم الرحلات الداخلية والخارجية واليومية للأماكن السياحية في الأردن وخارجه، وتبعًا للقرار الجديد الذي يمنع المواطنين من التنقل بين المحافظات، وإغلاق المداخل والمخارج، علاوة على تعليق جميع رحلات الطيران، فإنّ إيراد الشركة سوف يتأثّر حتما بشكل كبير.

شركة خالد مهدّدة بالإغلاق. برأيي لقد كان القرار صائبًا؛ من المنطقي أن تَعزل كلّ محافظة المصابين فيها أو عنها لاحتواء المرض، إنّ ضمان عدم مخالطة الآخرين يعني ضمان عدم انتشار الوباء. ممّا لا شكّ فيه أنّ القرار أثار سخط خالد وتوتّره، فلقد أفصح لي عن سوء توقّعاته بشأن تدهور أوضاع الشركة ولربمّا إفلاسها، فاقترحتُ أن يناقش الموظّفين عن خطط بديلة طارئة، فقرّر في اليوم التالي عقد اجتماع عاجل، لكن الاجتماع كان بلا جدوى؛ فالحالة الاقتصادية تتدهور، وقطاع السياحة متأثر بشكل كبير. لدى خالد عشرون موظفًا، من أين سيصرف لهم الرواتب في نهاية الشهر؟ خمس وعشرون رحلة تمّ إلغاؤها، جميع التكاليف المدفوعة مسبقا تمّ استرجاعها لحقّ المواطنين الذين تعطّلتْ رحلاتهم، ليس أمام خالد حلول كثيرة قبل أن يُعلن إغلاق شركته. وسط هذا التوتّر والخوف على مستقبل الشركة؛ تمّ الإعلان عن ازدياد عدد الإصابات بكورونا، لم أعرف كيف أخفّف عن زوجي مُصابه، ليس من السهل أن يتغيّر مصير حياتك المهنية فجأة، وينقلب رأسًا على عقب، فمن غير المتوقع أن يتغيّر كلّ شيء في ليلة وضحاها. ثم سمعنا خبر حجر جميع القادمين إلى الأردنّ في فنادق خاصّة لعزلهم، والتأكّد من عدم تفشّي الوباء، وبأمر من جلالة الملك عبد الله الثاني ابن الحسين المعظم صدر قرار بشأن تطبيق قانون الدفاع، وإعلان حالة الطوارئ القصوى، وحظر التجوّل في الأماكن العامة ابتداء من ٢٠٢٠/٣/١٨.

منذ صدور القرار وشوارع عمّان تغصّ بالبشر، لا فرق بين غنيّ أو فقير، وأسود أو أبيض، الجميع يقفون في صفوف طويلة على مداخل المخابز وبقّالات التموين، تفصلهم مسافة متر أو مترين، يرتدون الكمامات والقفّازات، بينما تجد في مناطق أخرى صفوفًا متدافعة وأيادٍ ممتدّة وأفواها معترضة. حالة ذعر وطنية وعالمية، البعض يحاول شراء الحاجيات الأساسية لعائلته، والبعض

الآخر يخزّن العشرات من سلال المواد الغذائية في صندوق مركبته... لو لم نمُت من الكورونا، سنموت من الجوع إذن.

في تلك الأثناء اضطررتُ للخروج من بيتي إلى أقرب سوق للمواد التموينية في صويلح، لم أستطع أن أشتري الخبز، فالصفّ كان طويلاً، والجوّ بارداً. حاولتُ شراء ما يلزم من الخضراوات، لم أجد اللبن، أو الحليب، لكنّي استطعتُ شراء البيض بعد مشقّة.

عدتُ إلى البيت أقطر عرقًا. لقد لمستُ الكثير من الأشياء: الخضراوات، باب المخبز، طاولة (الكاش)، النقود، أزرار المصعد، مقبض المنزل، وحذائي... ماذا دستُ بحذائي؟ مكان بُصاق؟ لمريض أم مخالط؟ كنت أتوه داخل دوّامات حلزونية ليس لها نقطة بداية أو نهاية، أغرق في هلامها، أحلّل الصور والمشاهد، أذوب في تفاصيل التفاصيل، أُشبِهُ خيوطًا متشابكة... لقد أصبحتُ كرة منتفخة من الخيوط المعقّدة. دخلتُ إلى المنزل أصرخ: "لا تقتربوا..."، نزعتُ عني ملابسي، وغسلتُها في الغسالة بدرجة حرارة ٦٠، استحممتُ بالماء الساخن، غرقتُ داخل فقاعات الصابون. تساءلتُ... كم ساعة يمكن لكورونا أن يلتصق بي؟!

شعرتُ بضيق الحياة... مشقة كبيرة كنت أواجهها في تقبل الحرمان من متطلبات الحياة الأساسية والطبيعية، علاوة على سخطي في مشاركة الحياة مع زوج لا يفهمني، وعائلة غير متعاونة، وأب مغترب، وأم بعيدة حرمتُ من رؤيتها، وطفل منغولي، ومنزل لا نجد سبيلاً لامتلاك أوسع منه، أو دفع أجرته في نهاية الشهر... ثم يأتي كوفيد ١٩؛ ليصفعنا الصفعة الأخيرة والقاضية. هاتفتُ أمي... قالت كلماتها الدافئة لتواسيني، رددتُها في صدري المنقبض: "لا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم"، فاتّسعتْ حجراته.

في يوم ٢٠٢٠/٣/٢٠ بدأ الحظر الشامل. كان يوما لا ينسى؛ جمعة بلا جماعة، وآذان بلا إقامة، ومنابر بلا خطباء. كنت مشبعة بالحزن، كشجرة تحتضر في خريفها الأخير. شختُ فجأة، الحزن يجعلك تهرم، فتبدو أكبر من عمرك، وتبدو جريحا. كانت أسواق عمّان قبل الحظر مكتظة بالبشر، وشبه خالية من الغذاء، بينما أصبحتْ، بعد الحظر، خالية من الحياة، كمدينة مهجورة، تركها أصحابها للأشباح.

كان خالد في ذلك اليوم يختلف عن خالد الذي أعرف؛ المدير المشغول، الغائب عن البيت، المفقود... بدا موجودًا. كان يجلس في هدوء، يُشعل سيجارته، ثم يُشعل أخرى، لا يُسمح له بالخروج من البيت، لا يُسمح له بلعب الأوراق (الشدّة)، والفوز على ندّه (حريّف الشدّة) مصطفى، حتى مبارياتُ كرة القدم غائبة عن الشاشات، وعن أعين عشاقها. لم يستطع خالد شِراء ما يرغب من البقالة، كان يحبس نفسه بين سيجارتين، دخّن علبتين من السجائر أثناء مشاهدة الأخبار، وبعدما نفذ مخزونه من الدخان، خرج ليتسوّل سيجارة، وعاد وعلى وجهه ملامح خاملة مصفرّة كالمرضى. كان زوجي يعاني من نقص حادّ في نسبة النيكوتين، محروم من السجائر، ومحروم من لعب (الشدّة) والمباريات، إنه الحرمان والضياع. ألقى بؤسه على الأريكة أمام التلفاز، وراح يلوك الملل ويبصقه من برنامج لآخر، لعلّ البرامج تُنسيه همومه العظيمة والتي يترأسها حاليًا خلوّ جيبه من السجائر... بمَ سينفث غضبه إذن؟! لا عزاء في فَقْد هويّتك وأسباب وجودك، زوجي نموذج حيّ على الحرمان من الحياة، هذا هو التعبير الأمثل لخالد. قلتُ في نفسي بخُبث...: وأخيرًا جلستَ داخل بيتك يا خالد.

أذّن المؤذّن لصلاة العصر، ثم ألحق الأذان بـ "صلّوا في بيوتكم"، متبوعة بغصّة بكاء عالقة. أحضر صهيب سجادته، وأمسك بكفّ خالد للذهاب إلى المسجد. لم تتماسك عبرتي، كانت تجَري كنَهْر اندلع فيه حريق، شرح خالد لصهيب عن الظروف الاستثنائية التي تمرّ بها البلاد، وأنّ باب المسجد مغلق، ولا صلاة هناك... لم يفهم، ولن يفهم... لا أحد يفهم كوفيد١٩ من العاقلين أو المنغوليين. صبيّ منغولي، لا يتكلم، تهفو روحه لصلاة في بيت اللّه، يتوق قلبه أن يلتصق بمحراب الآيات، وصدى التسبيحات... ألا نخجل؟!

شعرتُ بإحباط شديد، كنت أعاني من (متلازمة التعقيم)، أو ما يسمّى بالوسواس القهري، ومن جانب آخر كنت أعاني (الإحباط)، فإلى جانب غربة والدي الحبيب، وابتعاد أمي وأختي عني، وتغيّبي عن النزهات والتسوّق، وتعطل خالد عن عمله، ورغبتي المكبوتة في الجري بين الأشجار، وحاجتي الملحّة في الخروج من المنزل، كانت "صلّوا في بيوتكم" هي المحبط الأوّل، هي الشعرة التي تَقصم الظهر. الانتظار أسوأ رفيق على الإطلاق، يستطيع أن يغمرك يأسا من أول يوم حظر، لا شك في أن بعض الأحزان تفتك بنا أكثر من كوفيد نفسه. ثم

نظرت إلى الأمور من زاوية مشرقة، كلما داهمني الشعور باليأس كنت أركله، أصفعه، أرفضه... ثم أهدأ، وأستغفر اللّه من لحظات التعب التي لا تجعلني أرى إلا ما يُحزن.

أخذتِ الرضيعة تَصيح وتتألم من احتباس الغازات، حاولت تهدئتها، وتدليك منطقة البطن بالزيت، وإجراء التمارين لساقيْها، وبحمد اللّه غفتْ بعد صراع مرير مع الألم. فجأة صاح خالد: "أين صهيب؟" في البداية اعتقدتُ أنه يمازحني، لكنّه جاء مؤكّدًا، "صهيب ليس في المنزل يا هالة!".

بحثنا في الدواليب، وتحت الأسرّة، لم يكن الوقت مناسبًا للعبة (الاستخباء)، لا أثر لصهيب في أيّ مكان، انهارتْ أعصابي، وارتجفت أقدامي. سألنا عنه الجيران، لكن لم يرَه أحد. أصبتُ بنوبة هلع، أين ذهب الولد؟! لم يسبق أن خرج وحده أبدًا. ركضتُ في الشوارع، والدموع تغطي وجهي، تسيل مني وكأنني أنزف، أبحث، وأصيح:

صهيب... صهيب...

اجتمع الشباب والنساء من أهل الحيّ ليمدّوا لنا يد العون رغم حظر التجوّل. أين يمكنه أن يذهب؟ فجأة، لمحتُ طفلاً يجلس عند باب مسجد الحيّ في نهاية الزقاق، كان يبكي ويطرق الأبواب، كان هو... صهيب! هذا المنغولي علّمنا درسًا في الحبّ الحقيقي، في سلامة القلب، ونقاء الروح، وحاجتنا للخالق.

اتّصلتْ بي أختي لمى، كانتْ تبكي وتقول: "اليوم الجمعة حظر يا هالة، وكلّ جمعة حظر، هل هناك أسوأ من حظّي؟". حكاية لمى مع الحظر تختلف عن حكايتي، أحيانًا أواسي نفسي بمصابها، فلقد انفصلتْ لمى عن زوجها منذ بداية عام ٢٠١٩، وقامتْ برفع قضية في المحكمة الشرعية تطالب فيها مشاهدة ابنها الوحيد الذي تجاوز الرابعة عشر ربيعًا. لم يكن محامي زوجها السابق يدافع عن الشرفاء، فلقد أدلى للقاضي ببراهين كاذبة تثبت عدم أهليّتها لمشاهدته. ورغم كلّ الادّعائات الكاذبة والاتّهامات الباطلة صدر القرار أخيرًا بتمكينها من مشاهدة ابنها يوم الجمعة، بحيث تذهب لبيت زوجها السابق، الذي يقنط في نفس الحيّ في إربد، لتصطحب ولدها، ثم تعيده في المساء.

كان يوم الجمعة أوّل يوم لتطبيق قرار القضاء، ولسوء حظها لن تحظى بمشاهدة ابنها. أظنها صدقتْ بشأن الحظّ الأسوأ على الإطلاق.

شكوتُ لخالد مشكلتها، فحاول التدخّل وُديًّا للاتّفاق مع طليقها على يوم آخر للمشاهدة، نظرًا لجائحة كورونا والحجر الصحي، لكنّ طليقها انهال على خالد بالشتائم، وتدرّع بحُجّة خوفه على إصابة ابنه بعدوى الوباء، ففضّل بقاءه في المنزل. وبالتالي، فعلى لمى الانتظار لحين فكّ الحظر عن أيّام الجمعة، وذلك كان نصيب وجعها من كورونا.

ما أدهشني حقا أني حينما اتصلت بها على zoom بعد عدة أيّام، فاجأتني بارتدائها الحجاب! بدتْ أجمل، ساطعة، وأكثر بهجة، كانت مختلفة إلى حد انبهاري بها. باركتُ لها فقالت: "لن يُخيب اللّه قلبًا جاءه نادمًا يا هالة، ربما خسرتُ حياتي، لكني لن أخسر آخرتي، وسيعوضني اللّه قريبًا إن شاء اللّه". ثم قالتْ: "أبو ابني إنسان محترم واللّه يا هالة، ربّنا يهديه ويصلح حاله"... ما أقبح الخذلان! أنْ تثق بالشخص الخطأ، أن تَستأمنه على قلبك، فيَطعنك، ويُفلتَ يدك فتَسقط. الخيانة تأتي للقلوب الطيّبة فقط، ليس لأنّها ساذجة، بل لأنها وثقتْ أكثر ممّا ينبغي بمَن هو غير جدير بالثقة. في الحقيقة أنا لا أتمنّى أن تُصبح لمى شخصًا آخر، أو شخصًا أكثر لؤمًا، وشرًّا، تكفيني منها تلك البساطة، وتلك الثقة باللّه، وقلبها النقي الذي لا يفهم عُقد العالم.

فور انتهاء مكالمتنا (الزومية)؛ ابتسمتُ، وفهمت كيف يلقي اللّه لنا أطواق النجاة، دونما نعلم... لم يكن حظًّا عاثرًا إذن، ما أجملنا حينما نحوّل المحنة إلى منحة. لقد علّمتني أختي الصغرى كيف أرى الوجه الآخر من كوفيد، وكيف أواجه الحياة من تلك اللحظة فصاعدًا.

بعد عدة أيام نفّذت الحكومة قرار توزيع الخبز والماء على جميع المناطق، إلا أنّ القرار كان فاشلاً، فلقد هاجم بعض المواطنين مركبات التوزيع. الكثير من الناس أبدى سلوكًا عدوانيًّا، الكثير من المناطق لم يَصلها الخبز، وبالتالي تمّ إلغاء هذا القرار، ومحاولة دراسة قرار آخر أكثر جدوى. بعد عدة أيام أخرى سمحت الحكومة أخيرًا بفَتح بقالات المواد التموينية الصغيرة، وخروج المواطنين مشيًا على الأقدام لشراء حاجياتهم الأساسية.

ارتديتُ كمامة، وقفازات مطاطية، واتجهتُ نحو السوق مشيًا، لن يُحضر أحد حاجيات المنزل إذا لم أتصرّف. في السوق تشمّ رائحة المرارة، منظر مهيب حينما ترى جميع من حولك يرتدي الكمامات، ويخشى الاقتراب منك أكثر من متر أو مترين. حالة مؤسفة تعمّ شوارع عمان، صفوف طويلة تمتد بعيدا عن المداخل، ورجال الدرك يراقبون وينظّمون صفوف الجوع. من أمامي رجل يقف عند المدخل، يرشّ المطهّرات والمعقّمات على أكفّ الزبائن. على يساري شابّ يتذمّر من قلّة المؤن والازدحام، وعلى يميني سيّدة، تجاوزتِ السبعين، يُحاول شابّ من رجال الأمن مَنْعَها من الاختلاط للشراء، قالت: "أبو العيال اللّه يرحمه، مَن يُطعمني ويطعم العيال؟". تَقدّم الشابّ حازمًا: "ابتعدي يمّه"، ثمّ دخل السوق، أحضر لها حاجيّاتها، ثم قدّمها لها، كان يحاول ببسالة أن يمسك دمعته وسط ملامح الخشونة والعروق النافرة. ذلك الشابّ لا أعرفه، لا تربطني به قرابة، لا من قريب ولا من بعيد، لكنّي أحسستُ بشعور غامر في قلبي وكأنّه من لحمي ودمي، سكينة غامضة أطلّت من جبينه، لقد وجدتُ بين كتفيْه وطنًا.

حملتُ حاجيّاتي، وعدتُ إلى المنزل منهكة، نزعتُ كمامتي، وسررتُ بدخول الهواء النقي إلى رئتيّ. أشياء عديدة لم أشعر بقيمتها قبل زمن الكورونا، الخروج من المنزل، العناق، الأمان، النظر إلى المدينة المزدحمة... لماذا نشعر بقيمة الشيء حينما نفقده؟ كان على الجميع إذن أن يسقطوا في هاوية الحرمان من أجل أن يدركوا مرارة الفقد، اللّه وهبنا نعمًا كثيرة، وأثمنها في تلك اللحظة هواء نقيّ يملأ رئتيك. وقبل أن أبدأ بإجراءات التعقيم دخلتُ إلى الحجرة لأطمئنّ على الجميع: الرضيعة تبكي، علياء تحتاجني لحلّ مسألة رياضية، صهيب عاد يعتكف الأبواب المغلقة، خالد على الأريكة.

عندما حلّ المساء، تمكّنتُ من الجلوس في المنطقة الفارغة من الأريكة بجوار خالد. "يعطيك العافية"، التفتُّ إليه وهو ينطقها. اغرورقتْ عيناه بالدموع، "انظري يا هالة... الحرم فارغ"، انتحب، شاركتُه الانتحاب، حسرة موجعة أحرقتنا، قلوبنا تدفّقت وجعًا، قلوبنا تتمنّى لو تنهض، وتطوف، لتملأ الفراغ بيننا، وفي ساحة الحرم الهادئ... سألني: "هل تأخرنا في اللجوء إلى اللّه يا هالة؟" تعانقتْ كفوفنا، كانت اللحظة فرصة ذهبية للعودة إلى بعضنا، وللعودة إلى اللّه. قلت: "الوجع معلّم ناجح يا خالد".

ذات يوم، قرّرتُ الذهاب إلى منزل أمي مشيًا على الأقدام. المسافة بين صويلح وتلاع العلي لا تتعدّى سبعة كيلومترات، كان عليّ أن أشتري لها بعض الحاجيّات من الدجاج واللحوم. بادر خالد بمرافقتي، فسُررتُ كثيرًا، اضطررتُ أن أترك الرضيعة مع علياء، فهي، رغم هوسها في الدراسة، تكون على قدر من المسؤولية حينما يتطلّب منها ذلك.

بدا خالد مختلفًا، بدا أكثر رقّة، وأشدّ إنصاتًا لحديثي وتفاصيل ملامحي. بدا أطول ممّا ظننتُ؛ فهذه المرّة الأولى التي أرتدي فيها حذاء رياضيّا. ابتسامته كانت حقيقية من القلب، تَفاعل مع دردشاتي الجادّة منها والمازحة، لم يقاطعني، لم نتشاجر، لم نتناظر... صدق من قال: "بعض المصائب مكاسب".

كلّ شيء كان مختلفًا؛ مذاق قهوة الطريق، رائحة الحب المحفوف بالأشجار الفارعة، الطيور المغرّدة، الشمس الدافئة، النسمات الموسيقية الأشبه بألحان آلة الشبّابة... الحياة، ولأول مرة، كانت تزهو وتُضيء منذ بداية الجائحة، بهجة غير مسبوقة شعرتُ بها... شكرت اللّه وشكرت كورونا لمنحي رفقة ساعة مع زوجي، والذي غدا أقرب من صديق. كورونا يجعلنا نرى الأشياء بوضوح، يمنحنا أوقات تفكّر وإحساس عميق حقيقي بقيمة الأشياء من حولنا... ما أثمن الصديق!

اشترينا الحاجيّات، ووصلنا إلى منزل أمّي. طرقنا الباب عدّة مرّات، لم تجُب! حاولنا مجدّدًا، ولم تجُب كذلك!

"تصرّف يا خالد"، صرختُ بأعلى صوتي، لحظات... ثمّ أظلمتِ الحياة. تمتمتُ: "لعله خير"... "اللهمّ لطفك".

تسلّق خالد أسوار المنزل، ثمّ استطاع فتح المدخل، وركضنا نبحث عن أمّي في الداخل. فجأة رأيناها، ممدّدة على الأرض. تسمّرتُ في مكاني، صحتُ: "ربما انخفض السكري؟"، قال: "أحضري ملعقة من السكر". بالكاد جررتُ أقدامي نحو المطبخ، كنت أبحث ودموعي تحجب رؤيتي. قبض خالد بذراعيه عليّ من الخلف، ضمّني بقوّة، فغرستُ وجهي في صدره، عوتْ ذئاب الخوف في صدري، هَمَسَ: "لا تخافي نبضها جيّد، يستلزم نقلها إلى المستشفى". اتّصلنا بالدفاع المدني، حضرتْ مركبة الإسعاف بسرعة، وتوجّهنا إلى قسم

الطوارئ في مستشفى الإسراء. كنا سنفقد أمي لولا أن وصلنا في الوقت المناسب.

في قسم الطوارئ صادفتُ الموت وجهًا لوجه، حالة احتضار في نهاية الرواق. مررتُ برجل عجوز ابيضّتْ عيناه عائدة إلى الخلف، وفاهه مفتوح يشهق بخطاب قصير وأخير لم يُحضِّر له من قبل، صفّر الجهاز بطنين على وتيرة واحدة مُرعبة، وهرع الأطباء من كلّ اتجّاه لإنقاذ روحه التي كرهت الوداع. سمعتُ الطبيب يُخبر أفراد العائلة عن وفاة أبيهم، صرخت الفتاة: "أبي لا يموت"... أخذتْ تكرّر وتكرّر، لا تصدّق ما تسمعه. "يابا، يابَا قوم". أشحتُ بوجهي عن المشهد، انتفضتْ دموعي فوق وجه السرير، فلقد كان المشهد مرعبًا إلى حدّ الذهول. من الصعب أن ترى الأشخاص يموتون أمام عينيك؛ وأن تعيش هذه المواقف، وتشهد بنفسك موت أحدهم، فكيف إذا كان أحد من أفراد عائلتك؟! أقرب الناس إليك؟! مسكين، توفّي في زمن الكورونا، لا عزاء، ولا جنازة، ولا صلاة في مسجد، يقولون إنه كان مريض كلى.

مريض بالـ(كورونا)، بالسرطان، بالقلب، بالكلى... كلهم سواء، والموت واحد، لا عزاء في فقد العائلة. بعض المواقف هدايا من اللّه، وإن كانت تبدو عصيبة، ويصعب تجاوزها. ذلك الموقف كان هديتي، موقف الموت، المعلم القاسي، الذي يهزّ كيانك، ويوقظك من غفلتك. تساءلت: "هل أنا مستعدّة له؟"

بعد أيام تعافتْ أمي بحمد اللّه، وقمنا بنقلها إلى بيتنا لأشرف على رعايتها.

حاول خالد استخراج تصريح للتنقّل من عمّان إلى الزرقاء لزيارة عائلته هناك، لكنّه لم يتمكّن من الحصول عليه، فالتصاريح تمُنح للحالات الطارئة فقط، فبقي خالد في المنزل. كنت أراقبه وهو يعلم صهيب نطق بعض المفردات، ويخبره الحكايا المضحكة، ويقرأ له شيئا من القرآن، ويوثّق علاقته به إلى هذا الحدّ الجميل الذي يدهش القلب، ويملأ الروح بالأمل. أتمنى أن يكون هذا التغيير جذريًّا.

قرّر خالد إنهاء عقود جميع موظّفيه في الشركة، أرسل لموظفيه بريدًا إلكترونيًّا، شارحًا عن تغيّر الحالة الاقتصادية بسبب الجائحة، واضطراره القسريّ لهذه الخسارة. رغم صعوبة المهمّة على خالد فلقد كان مرتاحًا، أمانة

عظيمة كانت تجثم على صدره كصخرة وزُحزحتْ عنه أخيرًا. كان راضيًا برزقه، ومؤمنًا بالقضاء والقدر، "لعله خير" قالها برضى، ردّدْتُ وراءه: "سيأتينا الفرج بإذن اللّه". أحببت خالدًا كسالف بداياتنا، كورونا له سحر عظيم؛ لقد عاد حبّه يخفق بين ضلوعي، وكأني وردة حمراء نبتت من جديد.

شاركتْني صديقتي ميساء تفاصيل حِجرها الصحيّ في أحد فنادق البحر الميّت، والذي فُرض عليها نتيجة مخالطتها لإحدى المصابات بالمرض. قالت إنّ الروتين قاتل، باعثًا للملل؛ كانت تستيقظ، تقرأ كتابًا، تمضي وقتها على وسائل التواصل الاجتماعي، تنام، تستيقظ... تشعر أنّها متمدّدة كالمطاط، متعطلة مثل إطار مركبة مثقوب غير صالح للاستعمال... سيكولوجيًّا ما تمرّ به ميساء يسمى (الاكتئاب)، لوهلة كدتُ أجزم أنّها كانت تقرأ رواية (في بلاد الأشياء الأخيرة) لبول أوستر، فهي تسبب جرعة مفرطة من هذا العطب.

ليس من السهل أن يتمّ إلغاء زفافك فجأة، بعد التخطيط والتجهيز، مثلما حدث مع ميساء قبل أسبوع؛ حبيب مغترب لا يجد سبيلاً للعودة، وعروس وحيدة، وشقّة جديدة فارغة تنتظر أن يسكن فيها عروسان... لقد فصل كورونا بينهما بدلاً من أن يجمعهما. ميساء لا تشعر بالعالم من حولها، مفصولة عنه انفصالاً غريبًا، وكأنّها رائدة فضاء انفصلتْ عن مركبتها، وانقطعتْ عن كلّ ما يربطها بالأرض كما وصفتْ إليف شفق... الاكتئاب الذي تعانيه ليس فقدان السعادة فحسب بل فقدان الحياة، هو مرحلة نفسية تتسرّب فيها الحيوية بعيدًا عنك. لقد أصبح الخروج من الحجرة جريمة، تُهدّد أمن الوطن والمواطنين.

قالت ميساء: "أتمنّى أن يكون الفحص التالي إيجابيًّا، فأموت وينتهي العذاب". صدق مَن قال إن الاكتئاب يفوق الـ(كورونا) والسكري والملاريا والحروب كمسبّب للإعاقة، أسديتُ لها نصيحة بأن تقرأ وِردًا من القرآن يوميا، هو الدواء الأنجع لحالتها المعقدة. عائلة ميساء تشكو من الوحدة أيضًا، يبدو أن مرضى كورونا ليسوا هم الضحايا الوحيدين هنا، أحبابهم ورفقاؤهم كذلك.

جلستُ وحيدة في حجرتي، حذو نافذتي. كنت أتفكّر... عواصف تضرب أمريكا، مقابر جماعية تمتد بين اليابسة والبحر... التفكّر سيّد النّعَم في الحجر الصحي. قمرٌ وحيد، يجلس فوق شجرة وحيدة، مطلة على مدينة هادئة، هادئة جدًّا وكأنها تشعر بالوحدة. وحدة قاتلة، ملعقة دواء مرّة، ظلام دامس،

مآذن صامتة... ثم تُضيء مصابيح الشوارع، وتشعّ أنوار النوافذ من كلّ البيوت، أضواء أمل، تنير وترفع أصواتها من مآذن العتمة لتقول: "رغم كل الظلام سنضيء".

في أول يوم في شهر رمضان المبارك، غمرني مزيج من الحزن والفرح، فقد مُنع المصلون من أداء صلاة التراويح في المساجد. الكلّ سوف يلزم بيته، ويتجنّب التجمّعات، الصلاة في الرّحال، المرض ينشر حالة من الذعر، ويَفرض الحظر الجزئيّ، البيوت تُصبح مساجد، الكلّ يُصلّي، يَجأر، يُفرغ ما في القلب من آهات... استبشرتُ، سأتفرّغ للعبادة، ولعائلتي، هكذا قلت. بينما كان خالد حزينا، فلن يكون مع عائلته في الزرقاء، ولن يُعدّ خيمًا رمضانية وولائم هناك مثلما يفعل كلّ رمضان. ماذا سيفعل الفقراء؟ أين سيأكل المحتاجون؟ الصائمون؟ تُهتُ بين مشاعري ومشاعره... هل أحزن أم أفرح؟ تقول أمّي إنّها فرصة للدعاء، وكثرة الاستغفار، والتوبة، وتجديد عهد باللّه... كلنا فقراء، نحتاج إلى مَن يُطعمنا، الفقير الحقيقي هو مَن حُرم الأجر والعِتق من النار، خاصّة في هذه الأيام الفضيلة والمباركة. أوافق أمّي أنّها فرصة ذهبيّة لا تُعوّض.

أصرّتْ جارتي هيفاء على زيارتنا في ذلك اليوم، دخلتْ من دون كمامات ومعها طبق من (القطايف)، وخطتْ بحذائها داخل بيتنا، ثم جلستْ تحدّث أمّي لساعات. كلما تلامستْ أيدينا أبدأ بدَعْك يديّ بقوّة بالماء والصابون، أفرك وجهي وكأني أنوي إزالة جلدي عن لحمي. لم تتوقّف هيفاء عن التذمّر من زوجها وأمّه، ومن أوضاع البلد الاقتصاديّة، وضيق الحال، والحجر... لم يسلم أحد من شرّ لسانها. غضبتُ، انفجرتُ فجأة مثل غول متوحّش، سكتتْ هيفاء أخيرًا، ثم غادرتْ. رششتُ مجلسها بالمعقّمات، ونظّفتُ الأرض بالمطهّرات، ثم غسلتُ جسدي وأنفي بالصابون، أردتُ التخلص من الروائح الكريهة التي انبعثتْ من مجلسها.

أعدّ خالد كعكة الجزر بالمكسّرات، جانب جديد أكتشفه في خالد. في قلب الرجل حديقة سريّة لا تعرف عنها النساء، حدائق مفعمة بالحبّ، زاخرة بالحنان والعطاء، لكنها مغلقة، ولا تفتح أبوابها إلا إذا ما رفع الرجل الحظر

عنها. بعد أن تذوّقنا كيكة الجزر مع كوب الشاي برفقة العائلة أتمنّى ألا يختفي كورونا، أتمنّى أن يهدّد أعمالنا التي أشغلتْنا عن أحبابنا طيلة الوقت.

مع طول المكوث في المنزل، وتقضية أوقات أكثر مع صهيب، تقرّبتُ إليه أكثر، صنعنا معًا أشياء عدّة، وعلّمتُه صناعة طبق من ورق. لقد أصبحت الأطباق الورقيّة أحبّ الألعاب لديه، كان يجري أثناء تحليقها عاليًا، كي يتحرّر الطبق في الهواء كنجمة، ولربما كي يتحرّر هو أيضًا. الصبي المنغولي بات أفضل أصدقائي، معه كنت أطير، كنت أتحرّر من مخاوفي. ما أنقى الحبّ في عيونهم.

أعترف أن أوقاتي مع صهيب لا تخلو من لحظات أفقد فيها زمام غضبي، فأنهره، أو أصرخ في وجهه، كلما أغضب كان يطأطئ رأسه، ويبكي بمرارة، ثم يدفن رأسه في ثوبي بحبّ، فيزرعني من جديد. أوافق رأي الكاتبة جهاد الرجبي في الحبّ: "الحبّ يجعلنا نشعر بامتلاء أرواحنا، يجعلنا أكثر تسامحًا مع أنفسنا ومع الآخرين، الحبّ يتفتّح فينا... الحبّ أن تُصدّق أنك لستَ وحدك". لم يأتِ كورونا ليقتلنا، لقد جاء ليُحيينا، بطريقة ما يجعلنا ننبض سعادة.

كلّ مرّ سيمرّ، كل غيمة ستُمطر، لتُغيثنا، وتمَحو جفافنا، وتنبتنا أزهارًا أجمل. لحظة الأمل غير عاديّة، أفضل لحظة نمتلكها على الإطلاق.

أحبك أمي... أحبك يا صهيب... أحبك يا خالد...

بعد عدة أيام، سمحت الحكومة بتنقّل المركبات من الساعة العاشرة صباحًا وحتى السادسة مساء، على أن تتمكّن المركبات التي تحمل رقمًا زوجيًّا بالتنقّل، ثمّ يكون اليوم التالي للمركبات التي تحمل أرقامًا فرديّة، وبهذا تضمن الحكومة الحدّ من تفشّي المرض بين المواطنين.

خرج خالد لقضاء بعض الحاجيّات، وجلستُ بدوري على الحاسوب لدفع فواتير الإنترنت والكهرباء إلكترونيًّا، وتحضير الدروس المصوّرة. وسط انشغالي في إعداد الدروس يشيع بين زميلاتي خبر إقالة بعض المعلمات، وقد يُعتمد نظام التعلم الإلكتروني للعام القادم، لن تحتاج المدرسة إلى كادر تدريسي كبير في حال كان توقّعهم في محلّه، وبهذا ستَفقد المعلمات وظائفهنّ، ومقاعد أولادهنّ الدراسيَّة، ولربما يفقد أزواجهنّ المعلمون وظائفهم أيضًا. لا أنكر أنّ

القلق ساورني أيضًا، "لقمة العيش صعبة"، "ليس لدي مصدر دخل آخر"، "أنا معلّمة رياضيات، سوف يقيلونني بالتأكيد"، "من أين لي أن أطعم أيتامي؟"، "وماذا بشأن طلاب التوجيهي؟"، كلّ القرارات الدراسية معطلة حتى إشعار آخر"... مخاوف كثيرة تهدّد مستقبلنا، لكنّ الكثير من الناس لا يضعون بالحسبان مسألة الأرزاق المقسّمة، فإن كانت الوظيفة لك فهي لك، وإن لم تكن فهذا حتمًا غير مقدّر. ليتنا نرمي الأثقال التي أنهكتْ عاتقنا لمدبّر الكون، لما حَصَدَ القلقُ نفوس الناس وأفكارَهم.

استقبل المواطنون خبر التخفيف من حظر التجوّل بفرح غامر، بحمد الله لم يتم تسجيل أية إصابة بالمرض منذ بداية الجائحة، وبذلك صدر قرار بعزل محافظة العقبة للتأكد من عدم دخول أيّ مصاب لها، وإبقائها خالية من الإصابات، كما انتشرت فرق خاصة لتعقيم المركبات وفحص السائقين المتنقلين عبر المحافظات. حمدتُ الله أني في الأردن، كل قراراتهم وخططهم في مواجهة جائحة كورونا ذكية وناجحة.

في ليلة السابعة والعشرين من رمضان، كانت الليلة مشرقة، وكانت أمّي واقفة تُصلّي، فارعة كقَصَب السكر، تبتسم وتدعو، هل بسمتها نثرتْ كلّ ذلك الصباح؟! تستطيع معرفة الطيّبين من سيماهم، لهم وجوه تَفيض بالضياء، وملامح تَشي بالنقاء، حضورهم يبعثُ فيك الراحة، تجَد روحك تَنجذب إليهم لتذوب في أحضانهم... أمّي كانت تَستغفر في سكينة، تدعو لأبي ولي في ظهر الغيب، الاستغفار يُطمئن القلب، يُخفّف الألم، ويُزيل الهمّ. اللهمّ إنّك عفوّ تحبّ العفو فاعفُ عنا... قد تكون ليلة القدر.

في شوارع عمان، تلمح المشرّدين أكثر من قبل، يغفون على مقاعد الطريق الباردة، أو يبيعون المناديل الورقية والفواكه الذابلة عند الإشارات المرورية، زمن مخيف، وربّ لطيف، يحسن التصريف. ثم صادفتُ صبيًّا، اقترب من نافذة مركبتي، نزع كمامته وشدّها نحو الأسفل، ثم زفر حزنه ضبابًا على زجاج صدري. قدمتُ له بعض المساعدة، وقلتُ: "إنّ بعد العسر يسرًا، فإنّ بعد العسر يسرًا". نطقتْ شفتاه المبتسمتان: "شكرًا لك سيّدتي..." تمنيتُ لو أعانقه... لو أقبّله ألف قبلة... لكني خبّأتها في قلبي...

حينما نتوكل على اللّٰه، ونعيد بناء مبادئنا، ونجدد العهد به، ونتصالح مع أقدارنا، سيكون حينها يومنا جميلاً... ستُمطر غيثًا سخيّا
وسيأتينا الفرج
وسآتي لأزرع قبلاتي في وجنتيْك
أيّها الصبيّ...
وأيّها الوطن.

تعافٍ

مها حسن الغنام

١-اختيار

أراقب لهاثهما المتواصل عبر لوحٍ زجاجيّ سميك، قلّت نسبة الأكسجين فى دم الشابّ والعجوز لتصل إلى ٨٠٪، وليس بالمشفى سوى جهاز تنفس صناعيٍّ واحدٍ شاغر، عليَّ أن أفاضل بينهما؛ لأختار أحدهما، نظرت لوجهيهما الشاحبين، كانت ملامحهما تترجّاني دون حديث، وقع اختياري على الشابّ؛ فلديه فرصة أفضل، وتركت العجوز يصارع الموت على بُعد أمتارٍ قليلة منّي، لو كان أبي مكانه لاخترت أبي، ما أصعب هذا النوع من الاختياراتٍ وما أقساه! شعرت كما لو كنت إلاهًا يختار من يحيا ومن يموت، وأدركت أن مهمة الآلهة ليست بتلك السهولة التى تبدو عليها. المرضى جميعًا ينتظرون الموت فى حالةٍ هستيرية، لا فرق بين من تحسّن منهم ومن ساء وضعه، فبعض الحالات التي تحسّنت فوجئنا بموتها دون مقدّمات، وبعض الحالات التي ساءت جدًّا وعانت من ارتفاع معدل التنفس وزيادة فى ضربات القلب قاومت وعاشت، الموت هنا هو الأقوى وهو المعلم ونحن مجرد تلامذة، وكوننا تلامذة لا يجعله رحيمًا بنا. مع كلّ حالة تموت ترتفع حالة الهلع، طلب المرضى منّا مصاحف ولكن من أين أتى بمصاحف لكلّ هؤلاء؟! أخبرتُ مدير المشفى الذي توقع أنني طلبت رؤيته لأخبره عن نقص الحقن المضادّة للتجلّطات، لكنه حين فوجئ بطلبي أطلق ضحكةً مريرة، وأرسل إلى إمام المسجد المجاور فأعطاه كلّ المصاحف التي كانت تعاني من الهجر على الرفوف المتربة. بعد تعقيمها جيّدًا كنت أراقب تسليمها للمرضى بمشاعر مضطربة تتأرجح بين السخرية والشفقة وخيبة الأمل والشوق.

٢- عزل

مر الأسبوعان اللذان قضيتهما فى مستشفى العزل ببطءٍ مملّ، كانت مشاعر الطاقم الطّبّيّ مرتبكة، كنّا فرحين فرحة من خرج من الحرب منتصرًا، وحزانى كمن هُزم دون أن يحارب، مجرّد بقائنا على قيد الحياة انتصار فى حد ذاته، انتصار بلا طعم ولكنّه على أية حالٍ انتصار، لدينا رغبة عارمة فى العودة إلى ديارنا، كانت تحاليلي سلبية كباقي الزملاء، عدت إلى منزلي سيرًا على الأقدام، لم تكن بالمسافة القصيرة، ولكني أردت أن أعبأ رئتيَّ بأكبر قدرٍ ممكن من الأكسجين؛ إذ أدركت قيمة الهواء المجانيّ الذي أتنفسه، وصلت إلى البيت وعزلت نفسي لمدة أسبوعين، بالطابق الثالث في شقة أخي المسافر؛ خشية أن أكون مصابًا، فالتحاليل لا تكون إيجابيّة إلا بعد الإصابة بالمرض بستّة أيام، أبي وأمي بالطابق الثاني يفصل بيني وبينهم الدرج، أسرتي المكونة من زوجة وابنة فى الرابعة وطفلٍ رضيع في الطابق الرابع يفصل بيني وبينهم الدرج أيضًا، لا أستطيع أن أصعد أو أن أهبط، أنا سجين الوحدة وسجين الخوف وسجين المرض المحتمل، أدركت قسوة المسافات وقسوة الاشتياق لمن نحبّهم، كلّ ما كنت أتمنّاه أن أجتمع بعائلتي ذات مساءٍ نحتسي حساءً دافئًا، ونتجاذب أطراف الحديث، نشرب شايًا بالنعناع، ونحن نشاهد التلفاز، حتى ولو كنا نشاهد فيلمًا عربيًّا قديمًا، لم أعد أحلم بالفيلا التي يحيطها المسبح، والحديقة ذات الورود الزاهية، لم أعد أحلم بسيارة حديثة ورصيدٍ بنكيٍّ كبير، لم أعد أحلم بالفنادق العالمية والخدمة المميزة التي تقدمها، لم أعد أحلم أن أجوب العالم، كنت أحلم أن أستيقظ من نومي؛ لأعيش يومًا إضافيًّا، كان شبح الموت في كلّ مكان حولي، الموت الذي تركته يلتهم العجوز بالمشفى دون أن أحرّك ساكنًا.

٣- عودة

انتهى الأسبوعان سأرى أبي وأمي وزوجتي وأولادي الذين لم أرهم وجهًا لوجه منذ شهرٍ كامل، صحيح كانوا يتصلون بي عدة مرات على مدار اليوم،

وأحيانًا كانوا يروننني وأراهم عن طريق خاصية (الفيديو كول)، وكأنني مسافر، لكنها لم تكن تغني أو تسمن من شوق، اليوم أنا معهم وبينهم، ملامح أمي وأبي تنمّ عن سذاجة رائعة ونفسٍ راضية، هما غير مدركين لما يحدث بالخارج، يعيشان فى عالمٍ صغير حدوده الطعام والشراب والصلاة والذكر ومشاهدة التلفاز والنوم، عالم خالٍ من التوتر والقلق، حدثني أبي ساخرًا: "العالم مفزوع من فيروس يقتله الماء والصابون"، أعدت أمي لي البط والملوخية والأرز المعمّر، أكلت بنهمٍ لم أعتدْه، شعرت بلذة غريبة تسري في جسدي، تناولت نفس الأكلة مئات المرات معهم، وأنا أضغط مفاتيح هاتفي المحمول أتابع مؤتمرًا هنا أو فعاليةً هناك، دون أن أشكر أمي على تعبها في إعداد الطعام، دون أن أرمق زوجتي بنظرة محبّة، دون أن أداعب ابنتي أو أن أطعمها بيدي، التففنا حول التلفاز كانوا يتابعون مسلسلاً ما، وأنا أتابع ملامحهم الطيبة العطوفة، أرتوي منها قدر استطاعتي؛ فأنا أفتقدهم بشدّة، وربمّا سأفتقدهم أكثر فيما بعد.

٤- وحشة

أتتني مكالمة تليفونية ففضلت أن أتلقّاها وأنا أسير فى الشارع، كنت بحاجة ماسّة لأن أتحدّث مع أحدهم، بصوتٍ مرتجف سألني عن حالي دون أن ينتظر جوابًا، ثمّ أخبرني بوفاة مدير مستشفى (الصدر)؛ على إثر إصابته بفيروس كورونا المستجدّ، أخبرني باكيًا دون أن أسأله، عن تدهور حالته السريع، عدم قدرته على التنفّس، وأخبرني عن عجز الطاقم الطبّيّ عن تقديم أيّة مساعدة، بكيتُ كما لم أبكِ من قبل في حياتي، الطبيب الذي مات لم يكن من أصدقائي المقربين، لكنه إنسان...روح، كان يمكن أن أكون أنا من مات، سرتُ على غير هدى؛ فمررت على مسجد مغلق، والإمام بداخله وحيدًا؛ يردّد بنبرة جنائزيّة أذان العشاء، نظرت للباب المغلق أمامي، وتمنّيت لو فُتح، لم أسجد للّه سجدةً واحدة منذ ما يقرب من عشر سنوات، بعد قراءتي لبعض الكتب وسماعي لبعض الفيديوهات على اليوتيوب وإجرائي لبعض المناقشات مع مجموعة من الأصدقاء البسطاء فكريًّا؛ توقّفت تمامًا عن الصلاة، وتسائلت كيفلسوفٍ متعجرف إن كان الخالق موجودًا؟! تجنّبت النقاش في الأمر مع من حولي من

المقربين، أبقيت شكّي سرًّا، وها أنا ذا أتمنّى لو فتح الباب الذي ظلّ مفتوحًا أمامي لسنوات، دون أن أشعر بأية رغبة في الدخول، بل وكنت أسخر بداخلي من هؤلاء الذين يهرعون للصلاة، أنا فى أمس الحاجة لأن يفتح الآن لكنه لن يفعل فهو مغلق كإجراءٍ احترازيٍّ؛ لمنع التجمّع والازدحام... أنا فقط أريد أن أترجّاه ألاّ يعاقبني، وأنً يكون رحيمًا بي كما اعتاد أن يكون، عدتُ إلى شقتي فوجدت زوجتي نائمة، بحثت عن سجادة الصلاة لا أعرف أين تضعها وجدتها على الكرسيّ المواجه لسريري، كانت أمامي طيلة الوقت ولكنني لم أنتبه، توضّأت ولا أعرف إن كان وضوئي على هذا النحو صحيحًا أم لا، وصلّيت حسب استطاعتي، كانت غرفتي مسجدي في تلك الليلة، وكنت الإمام والمأموم، وكان بقلبي يقين شديد لا أعرف إن كانت الأزمة هي من أتت به إليَّ أم أنه كان قابعًا بداخلي ولكني لم أدركه.

٥- ادفع

إنّه يوم العمل الأول بعد انقطاع تجاوز الشهر؛ اشتقت إلى عيادتي، ومرضاي، ومساعِدتي التي قطعت راتبها أثناء غلق العيادة، لم أفكر كيف ستدبر حالها، راتبها ليس كبيرًا، لكنها لن تعمل؛ فلماذا تحصل على المال؟! هذا ما فكّرت به أو ما فكّر به رجل الأعمال الحقير الذي بداخلي، لم أولد هكذا لكن الإنسان الذي بداخلي يضعف مع الوقت والتاجر الذي بداخلي يقوى، أنا تاجر بالمعنى الحرفيّ، أقدم سلعة طبية عبارة عن تشخيص جيّد للمرض في مقابل ماديّ، ثمن رؤيتي باهظ؛ فعلمي لا يقدّر بثمن، لكنني أتنازل وأقدّمه لمن يدفع، لا تهاوُن في الأمر: (ادفع... تدخل) هذا شعاري وشعار الكثيرون ممن أغوتهم الدنيا مثلي، لا استثناءات، إن لم تدفع مئتي جنيه لن ترى وجهي الوسيم، كنت أسخر من أصحابي الذين يستثنون بعض الفقراء؛ فيجرون عليهم الفحص بثمنٍ زهيدٍ، وأحيانًا يفحصونهم بشكل مجانيٍّ، صديق مقرب لي جعل استشارته مجانية يوم الاثنين من كلّ أسبوع للفقراء، يأتيه أكثر من مائة مريض ويفحصم دون أن يتقاضى جنيهًا واحدًا. مائة ضرب مائتين؛ حاصله عشرون ألفًا؛ لحصلت عليهم لو كنت مكان ذلك المغفل، لكن ثمن زيارته بسيط فتلك

كان وصية والده ألا يغلق بابه أمام مريض، حكى لي أثناء سفرنا معًا لإحدى المؤتمرات أنه يشتري العلاج للمريض إن لم يستطع فعل ذلك، بل ويدفع له ثمن التحاليل والأشعة سخرت منه حينها وجعلته أضحوكة المؤتمر إذ لقبته بطبيب الغلابة، وزدت في نكايتي له فلقبته بطبيب الفلاحين، أعرف أنّه من الأرياف، وكذلك معظم مرضاه، لم يتخلص من سخريتي إلا بشقّ الأنفس، أعيد التفكير الآن في كلّ هذا، ها هو قد مات بالأمس مصابًا بالفيروس اللعين هل سينفعه المرضى الذين قدّم لهم خدماته بالمجانّ؟ هل تراهم سيسألون عن زوجته وأولاده؟ أم أنهم سيبحثون عن طبيب غيره؟!، لم يكن هناك ذلك التاجر بداخله أو ربما كان هناك واحدًا، ولكنه حسبها بشكل مختلف؛ ففضّل أن يتاجر مع اللّه، لابد أن هناك كثيرون سيترحمون عليه ويدعون له.

٦- حذر

لم يعتد أبي الاتصال بي أثناء عملي؛ لأنني كنت أعنّفه عندما يفعل، عندما ظهر اسمه على شاشة هاتفي ابتسمت، وأسرعت بالردّ، كان صوته متحشرجًا، وطلب منى إحضار دواء مضادٍّ للسعال أثناء عودتي؛ ففعلت، كانت حرارته مرتفعة وسعاله جافًا، كان يتأوّه بسبب ألم عظامه، كنت أكذّب مخاوفي، وذهبت في اليوم التالي لإجراء الأشعة والتحاليل فوجدته مصابًا بالفيروس اللعين، لم تكن رفاهية الاندهاش متاحة، اصطحبت أمي وزوجتي وأبنائي؛ فوجدتهم جميعًا مصابين، ولكن أعراضهم خفيفة تساءلت كيف أصيبوا أنا أمنعهم من الخروج وأحضر كلّ شيء بنفسي: الطعام، والشراب، والأدوية، ثمّ تساءلتُ ببلاهةِ مبتدئ؛ إن كنت أنا مصابًا بالفيروس؟ وإن كنت أنا من نقل العدوى إليهم؟ صحيح أنا ملتزم بالإجراءات الاحترازية، أرتدي قناع الوجه والقفازات، وأستعمل الكحول باستمرار، ولكن كلّ من خطفتهم براثن الموت كانوا أكثر مني حيطةً وحذرًا.

٧- إصابة

تحاليلي أظهرت أنني مصاب بالفيروس، لابد أن أحد المرضى قد نقل العدوى إليّ، ومن ثمّ فقد نقلتها أنا لعائلتي، حاولت حمايتهم على مدار ثلاثة أشهر، وها أنا الآن قد أذيتهم دون قصدٍ منّي، منعت أبي من حضور عزاء صديقه المقرب، ومنعت أمّي من زيارة أختًها التي استأصلت المرارة إذ كانت على وشك الانفجار، منعت زوجتي من زيارة صديقتها التي وضعت، منعت أولادي من المدارس والدروس الخصوصيّة والمتنزهات، حتّى قبل أن تعلن الدولة الحظر، تمنّيت لو كان باستطاعتي أن أخبّأهم في مكان ما داخلي، أن أحبسهم في قفصي الصدريّ، ولا أخرجهم أبدًا، لم أكن أعلم أنّني أحبّهم إلى هذا الحدّ!

٨- مواجهة

لست عاطفيًّا؛ فأنا رجل عمليٌّ مقيت، لا يدرك النعم التى حباه اللّه إيّاها، لا أحبّ المخاطرة، ولا أقبل الخسارة، أنا طبيب جلديّة، لا أتعامل مع أشخاص حالتهم خطيرة؛ بحيث تجعلهم قريبين من الموت، ذهبت إلى عيادتي في اليوم التالي؛ لأقابل مساعِدتي، أعطيتها راتب الشهر المنصرم الذي حرمتها منه، وأعطيتها راتب الشهر الحالي الذي لم ينقضِ منه سوى عدة أيّام، وأخبرتها أنّني سأعاود غلق عيادتى لفترة غير معلومة، كنت أتعامل معها، وأنا أقف على مسافة كبيرة منها، أخبرتها فى خجل أن تتصلّ بي إن احتاجت أيّ شيء، سألتني -بتردّد- عن سبب إغلاقي للعيادة؛ فأخبرتها -دون رغبة منّي- أنّني وأسرتي جميعًا مصابون بالفيروس، تعجّبت لبكائها، كنت أعتقد أنّها تكرهني، فأنا أتعامل معها بتعالٍ، أحدّثها بصوت مرتفع، وأعنّفها دائمًا لسببٍ، وبدونه، قالت لي: لا تقلق؛ ستنجون منه -بإذن اللّه-، إنّه عنيفٌ وقاسٍ، لكن اللّه يعين عباده، ستتمكّن مناعتكم من مقاومته...

عادت السخرية إلى نبرتي وأنا أحدّثها؛ فقلت: تتحدّثين، وكأنك واعظة أو طبيبة! فقالت لي -بثبات لا أعرف من أين أتت به-: اسأل مجرّب ولا تسأل طبيب. فوجئتُ أنها قد أصيبت أثناء وجودي في مستشفى العزل، وباعت خاتم زواجها؛ لتتمكّن من إجراء الأشعة والتحاليل ولتشتري الأدوية، كلّ ذلك دون أن

تتصل بي لتستشيرني كطبيب، أو لتطلب منّي المال كربٍّ عمل، يبدو أنّني شخص غير متعاون ومحبِط؛ لذا لا يلجأ إليّ أحد، ربمّا لو كنت أعطيتها راتبها الشهر المنصرم؛ لما اضطرّت لبيع خاتمها، ربمّا لم أكن الآن مصابًا أنا وزوجتي وأبنائي وأبي وأمّي، خرجت من عيادتي أجرّ أذيال هزيمتي، هزيمتي الأخلاقيّة والصحيّة والنفسيّة، ربمّا تجدي الأدوية نفعًا؛ فتُشفى رئتاي، لكن ما أصاب قلبي من كبرٍ وقسوة لا يمكن علاجه.

٩- أن تأتي متأخّرًا خيرٌ من ألاّ تأتي

أعدت ترتيب حياتي في تلك الليلة؛ فقرّرت أن يكون هناك يومٌ للكشف المجانيّ، وقرّرت أن تكون قيمة الفحص بقية أيّام الأسبوع أخفض، اشتريت بعض الأدوية لإعطائها للفقراء من المرضى بالمجّان بعيادتي، اشتريت أقنعة الوجه وقفازات وزجاجات كحول وأعطيتها لعامل الأمن، وأوصيته بإيصالها لمدير المشفى دون ترك اسمي، قرّرت إن كان في العمر بقيّة أن أذهب صباحًا للمشفى، ثمّ إلى عيادتي لمدة أربع ساعات فقط، ثمّ أعود لأقضي بقية الوقت مع زوجتي وأولادي، يوم الجمعة سيكون للزيارات العائلية لن أتحجج بضيق الوقت سأزور المرضى، وأبارك في الأفراح، وأعزّي في المآتم، سأبتسم في وجه الممرّضات، وسأضاعف الأجر لسائق التاكسي، سأكون لطيفًا، ولن أنسى أن أقدّم الهدايا في أعياد الميلاد وأعياد الزواج سأذبح الأضاحي و... كنت أدوّن ما أريد فعله؛ كيلا أنساه، ثمّ واتتني فكرة أخرى ربمّا هي أفضل وأسرع وأنسب.

١٠- وصول

أشعر بضيقٍ شديدٍ في التنفّس، وكأن صخرة ثقيلة تجثو فوق صدري، ضربات قلبي سريعة وحرارتي مرتفعة لا أستطيع أن أتحرّك أو أن أتكلّم، مرهق جدًّا، ثمّ انتهى كلّ شيء، هدأت تمامًا، سمعت ما يشبه الموسيقى الهادئة لفترة، ثمّ انقطعت فجأة، لا أعرف لماذا يبكي الجميع هنا، أتمنّى أن يكون أبي بصحة جيدة، زوجتي وأمّي يرتدون ثيابًا سوداء، أكلّمهم لكنهم لا يصغون إليّ، أقف

أمامهم فلا يروننني، أبي يجلس بجوار المذياع الذي يردّد سورة يس بخشوعٍ، وها هو أخي الأكبر عاد من سفره، كما طلبت منه في الوصية، تزوّج من زوجتي، واعتنى بأطفالي، أنفق مالي كما طلبتُ منه، فساهم في بناء مشفى لعلاج أمراض الجهاز التنفسيّ بالمجّان، وها هم في ذكرى وفاتي السنوية يتذكروننني بدموعٍ أقلّ، وبحزنٍ أخفّ، يعدّدون مناقبي التي لم تكن كثيرة، فأفضل ما فعلته فعلته بعد موتي بيد الآخرين، أدركت متأخّرًا: أنّ الحياة رحلة، وأنّ ما يبدأ ينتهي، وعندما نصل يصبح عدد المحطات التي قطعناها مجرّد تفاصيل تافهة، الأهمّ استعدادنا للوصول، أشعر الآن أنّني أقلّ إرهاقًا وأكثر خفّة، لم يعد هناك داعٍ للحزن وللدّموع؛ فلقد تعافيت.

تنهيدة حارّة

إسلام محمد أبو فرحة

تنهيدة حارّة هي كلُّ ما صدر مني، فأنا على فراش الموت أصطلي بنيران الحسرة، وحمى المرض؛ لقد أسرفت على نفسي، ولم أدَع شاردة ولا واردة إلا وقد أتيتها، يا لعمري كم أنا أحمق ووغد! أهلكت نفسي بكبريائي ولم أخجل يوما ممّا أفعل!

- سأبذل كلّ ثمين مقابل أن أنجو.

أقولها للطبيب الذي بدا معدوم الحيلة، وهو يفحص المحاليل الموصولة بجسدي وتمدّ أحشائي بالعقاقير.

- ستنجو -بإذن اللّه-، تحلَّ بالصبر والإيمان، وبهما تتخطّى كلّ الصعاب.

أتمسّك بكفّ يده وأعتصرها قائلاً:

- أنا لا أريد أن أموت أيّها الطبيب، ما زلت شابًّا يافعًا لم أحظَ بالقدر الكافي من المتعة؛ طموحي أن أجوب العالم شرقًا وغربًا وأرى كلّ جميل. ألستُ وسيمًا يا سيدي؟ ستدفن هذه الملامح الرقيقة تحت التراب، وستمضي آيات البراءة نحو نهايتها. أتوسّل إليك أن تنجيني من هذا الموت المحتوم.

- هوّن عليك فما أنت براحل إلا أن يشاء اللّه، ولكن دعني أتساءل بما أنك ذكرت الدنيا بملذاتها، هل أعددت العدة للرحيل؟ وهل تداركت أخطاء الماضي في حق الذي يقول للشيء كن فيكون؟

- أتقصد اللّه؟

- ومن لنا سواه لنستمسك بحبله؟ ونرجو عفوه ومغفرته، ونسأله -سبحانه- أن يرفع عنا هذا الوباء؛ هل لنا أمل أو رجاء دونه؟

لم أستطع أن أكتم ضحكتي، ولكن الألم في صدري كان كالحمم، وهي تثور من فوهة البركان... حتى الطبيب حار في أمري أأشكو من الألم أم أضحك سخريةً ممّا يقول؟

- معذرة أيها الطبيب، فأنا لم أملك نفسي من الضحك، أأنت طبيب أم واعظ؟ دعني وشأني إذا كنت جاعلاً حديثك كله عن مثل هذا الكلام المثير للشفقة، نحن أقوياء بعلومنا وبإرادتنا، ليس بفعل قُوَى خارقة، ما الدين إلا أفيون الشعوب، وهذا الإله ما هو إلا خرافة ابتدعها الإنسان ليبرّر بها ضعفه ووهنه... لا تشمئزّ منّي هكذا حين أواجهك بالحقيقة الصادمة؛ فليس لديّ ما أخسره؛ لذا سأتحدّث بما يجيش في صدري، ويدركه عقلي.

- كفى باللّه عليك، ما الذي تقوله؟ أتظنّ أن هذه العقاقير هي التي ترفع عنك السقم وتشفيك؟ أم ترى أنّنا نحيا بلا سبب سوى أن نستمتع بالحياة بلا رقيب؟ أعدْ حساباتك مرّة أخرى يا صديقي؛ فليس كلّ ما يتمناه المرء يدركه، وكم من قويٍّ عزيز أذلّه اللّه! وكم من ضعيف ذليل أعزّه اللّه! من يشفيك ويهيّئ الأسباب لك ليُرفع عنك المرض؛ هو اللّه، فمهما اتّخذنا من سبل وانتهجنا من طرق لن تجد إلا هو من يسدّد خُطانا نحو الصواب.

- إذا كان ما تقوله حقّ، فلم لا يشفينِي؟ سأخلص له وأؤمن به إذا نزع عني هذا المرض.

- لا تقل مثل هذا الكلام! فليس لك أن تختبر اللّه أو تعبده بشروطك، فأنت في دار اختبار ولست في دار البقاء.

- أيّ دار بقاء تقصد، إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

- إنّك تردّد ما قاله الأوّلون من قبل.

- ماذا يحدث هنا؟

يرتبك الطبيب لمقدَم آخر؛ يبدو أنّه رئيسه في العمل، فيقول:

- لا شيء يا سيدي، أنا أتابع حالته فقط.

- ولِمَ أسمع نقاشًا محتدًا بينكما؟

ابتسمت لمرأى هذا الطبيب الساذج يتحول إلى فأر أمام أستاذه الذي أمسك به بالجرم المشهود، أردت أن أكيل له ضربة قاصمة بأن أخبر سيده بما قال، وأنه يزعجني بعظاته البالية، ولكني أشفقت عليه فقلت:

- إنه كان يروّح عنّي قليلاً، لا بأس سيدي الطبيب؛ فلقد أصابني الملل من رقودي طوال الوقت.

رمقته بنظرة مفادها أنّي سأنجيك هذه المرّة، فبدأ مغتاظًا بشدة، فغادر دون أن يقول شيئًا.

تابعته بنظراتي وشعرت بالفخر لانتصاري عليه. تذكرت مرضي الآن، حيث ازداد عليّ الألم.

-أتمنّى أنّك تلقى الرعاية الكاملة يا سيدي.

- أشعر بألم مبرح، فهل لك أن تصف لي دواء يذهب عني هذا الوجع؟

- بالطبع، سأفعل ذلك.

تأتي الممرّضة بعدما قرع الجرس الذي بجواري، وأخبرَها بأن تحضر عقارًا ما؛ أتت به وحقنته بأوردتي؛ لأشعر بعدها بشيء من الراحة، ولكني أشعر بالنعاس يداعب جفوني.

آخر ما سمعت من الطبيب:

- استرح يا سيدي، ستشعر بتحسّن عندما تأخذ قسطًا من النوم.

استفقت، بل فزعت من صوت صراخ إحداهنّ، وساد الهرج والمرج، وعبر الباب رأيت الأطباء يركضون، ويتبعهم طاقم التمريض، أردت النهوض ولكن منعتني المحاليل المتصلة بجسدي والمعلقة بجواري، التقطت الهاتف المتاخم لي لأفهم ما الذي يحدث، "صفر..." هذا رقم الاستقبال، أسمع صوت الجرس، وما من مجيب!

ينهشني الخوف والفضول، هل هناك كارثة ألمّت بالمشفى؟ هل توفّي المريض الذي بجواري؟ قرعت الجرس، وانتظرت دقائق، ولكن لم يأتِ أحد! قرعت الجرس مرارًا دون فائدة، طال الانتظار وزاد القلق، لم أستطع أن أتحمّل أكثر من هذا، لذا نزعت كلّ شيء وقمت إلى الباب متحاملا على نفسي، لا أستطيع أن أصف لكم الألم فهو يتخطّى كلّ حدود الاحتمال، سرت كما الدمية، قدم تخطو والأخرى أتوكّأ عليها.

لا يوجد أحد! الغرف خاوية والممرات خلت من كلّ من فيها!
تعالت أصوات أنفاسي، وضاق صدري ولم أحتمل، فجلست أرقب أن يأتي أحدهم ليميط اللثام عما يحدث.

مرّت الساعة تلو الأخرى، وأنا عاجز تمامًا عن الحركة، هذا الفيروس اللعين يصيب رئتيك ويجعلها كالمنطاد... أشعر بالدوار! يجب أن أعود إلى فراشي، فزحفت إليه، وازداد إحساسي بالعجز؛ لعدم قدرتي على بلوغه.

أخيرًا، وقد أشرفت على الهلاك، أسمع صوت خطوات تسرع باتجاهي. لا أقوى على النطق ولا حتى أن أرفع ذراعي. بيد أن القادم قد أدرك حاجتي للهواء. كانت محاولاته مضنية لإنقاذي، حتى وضع قناع الهواء على وجهي. سمعته وكأنه يقول:

- هيّا تنفّس.

حاولت أن أميّز ملامحه، ولكن كان هناك ثمة غشاوة على عيني. أنسام الحياة تسري في جسدي، وقلبي يعود للخفقان ليبثّ الدماء المحملة بالنسيم عبر شراييني. حمدت اللّه حينئذ! أجل لقد انقطعت كلّ سبل سيرورة البقاء، ولا إراديًا تشبّثت بأستار رحماته، وطرقت أبواب فضله وكرمه، ودعوته أن ينقذني... إحساس فريد لمسته، وشعور بالطمأنينة خالجني لأول مرة. إذن هذا هو اللّه الذي بيده كلّ شيء، رحمته وسعت كلّ شيء، حتى العبد الآبق مثلي يشملني برحمته وعفوه...

غلبني النعاس فلم أقاوم، وتركت نفسي أنساب نحو شيء يدعوني للاستسلام... إنّني في البرزخ بين اليقظة والنوم، أحلم وما أنا بنائم. أرى الطبيب الذي كان يدعوني للعودة، يدعوني لكي أستفيق من غيبوبة أخرى كنت أعيشها، وأنا بكلّ صلف أهينه، وأهين إيمانه بربّ السماوات والأرضين. كم كنت فظًّا غليظ القلب! لا همّ لي إلا مهلكات النفس البشرية أمام ربّ البرية... كم كنت آيسًا من عودة خالصة تحيي فيّ أمل النفس السوية!

رأيت ذاتي؛ وقد انهمكت فيما يذهب العقل، ويذهب المال، ويذهب كلّ أسباب الجمال... اختفت الصورة وحلّ محلّها شعوري بالضيق الشديد، حيث صدري يكاد يُفتك به من قِبَل قبضة غير مرئية تنهال عليه مرارًا وتكرارًا. أفقت على صرخات ونيران أضرمت في كلّ شيء. لقد شبّ حريق بالمشفى ممّا جعلني

أرى الصورة ملبّدة بالدخان، ومنقذي لم يكن سوى رجل الإطفاء مرتديًا بزّته، ويحاول جاهدًا أن ينعش قلبي بقبضاته المنهالة على صدري... سعلت! فكانت هذه بشرى كوني على قيد الحياة.

على محفّة وضعوني، وفي سيارة إسعاف نقلوني، وإلى مشفى آخر ذهبوا بي، لألقى العناية الطبية اللازمة لحالتي الحرجة. ما زلت أحمد اللّه على أنه نجاني من هذه الميتة البشعة، فلقد رأيت المستشفى وقد صارت جحيمًا خالصًا، حيث النار تنبعث من كلّ نافذة والدخان يحيط بالمبنى من كلّ جانب. وسيارات الإطفاء والإسعاف تغدو وتروح بين جنبات المكان؛ تنقل المرضى والمصابين.

- كيف تشعر الآن يا سهيل؟
- أنا في خير حال والحمد للّه.

يقول الطبيب الذي يقرأ ملفه العلاجيّ:

- أنت في تحسّن مستمر وملحوظ، وهذا يرجع إلى حالتك النفسية المزدهرة.
- هذا من فضل اللّه.
- على هذه الوتيرة يمكنني أن أقول بأنّنا تخطينا مرحلة الخطر... وكلّها أيام وندعك تعود إلى المنزل.

تظهر أمارات القلق على وجه الطبيب، والتي تصيب سهيلاً بالتوتّر؛ ليقول الأخير:

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

ولكن الطبيب يلزم الصمت ويستمر في قراءة التقارير الطبية... لينتهي منها وينظر إلى سهيل، ودون أن ينبس ببنت شفة، يرحل الطبيب تاركًا الأخير في حالة من التخبّط بين الجزع والخوف. ليتمتم قائلاً:

- يا ربّ، قد جاوزت ذنوبي كلّ حدّ، فعدت إليك ربِّ ذليلاً خاضعًا، تشرئبّ عنقي لعفوك وغفرانك، وناصيتي خنعت لعظمتك... إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي.

ينظر إلى سقف الغرفة، وهو يفكّر في حاله، هذا المرض الفتّاك جعله يعيد النظر في مجريات حياته، والأحداث التي مرّت به... لقد أودى به هذا السقم إلى الرجوع إلى اللّه، واستحضار جلالته. يسترجع ما حدث لأبيه يوم وفاته؛

لقد كانت ابتسامة رائعة هشّ بها إليه، وأبوه الذي كان يرقد على سرير مجاور في حالة مزريّة. ويبادله الأب الابتسام ويلوح له بيده. لقد أفاق الأخير للتوّ وهو يستجمع قواه التي خارت بفعل المرض. حالة أبيه كانت أكثر سوءًا من حالته، ولكن أبوه صمد وقاتل من أجل حياته. كانت دقائق معدودة تلك التي بدا فيها الأب قد استعاد عافيته ودون سابق إنذار، سكنت حركته تمامًا... ظنّ للوهلة الأولى أنه استغرق في النوم ولكن جهاز قياس نبضات القلب قال كلمته. الموت تمثّل في الخط المستقيم الذي صاحبه صوت نذير وقوف القلب عن النبض. مرضه كان شيئًا غير متوقّع وهو الذي تمتّع بلياقة وصحة دائمتين. إنّه الإيمان بالقضاء والقدر الذي أتى بثماره، في اعتقاده، وجعله يتحلّى بالصبر لوفاة والده.

وهو على هذا الحال يدخل عليه الطبيب ومعه آخر لم يره من قبل. فيتحدّثان بمصطلحات طبية معقّدة لم يعرف كنهها، ولكن تراءى له أنّهم يتحدثون عنه. والطبيب الجديد منصت لما يقوله الآخر حتى انتهى. فيضع ناظره على سهيل لبرهة، ثمّ يقول:

- هل ما زلتَ تشعر بضيق في التنفّس؟

- لا والحمد لله، أشعر أنّي على خير ما يرام، وعندي الاستعداد أن أركض، وأمارس الرياضة؛ لأستعيد عافيتي.

- ستفعل بإذن الله، قريبًا... ولكن دعنا نستقصي عن بعض الأعراض.

- ما الذي يثير قلقكم إلى هذا الحدّ؟

- لا يوجد أيّ قلق، سنقوم ببعض الفحوصات الإضافيّة للتأكد من سلامتك، ومدى تقدّم حالتك، وسنعمد إلى إعدادك للخروج من هنا في أسرع وقت.

وبالرغم من طمأنة الطبيب له إلا أنّه ما زال متوجّسًا مما يتدارسونه بشأنه. حتى بدأ يشعر ببعض الوجع في قلبه، والذي قام بتجاهله تمامًا. لقد نجا من الموت المحتّم بفعل الحريق وسينجو هذه المرة.

- هل لي أن أهاتف أمّي؟

- بالطبع! قم بالتحدّث إليها، وإخبارها بتلك الأنباء العظيمة.

يلتقط سماعة الهاتف التي بجوار سريره ويطلب الاتصال بوالدته، والتي يأتي صوتها محملا بالأشواق واللهفة على وليدها. يتجاذبان أطراف الحديث،

ويخبرها عما يشعر به وأنه في غاية الشوق إلى لقياها... وهي بدورها تخبره عن ولهها واشتياقها. وبعد أن ينهي اتّصاله إذا بدقات قلبه تزيد من سرعتها، والألم بدأ يسري في كتفه الأيسر. فيصرخ وقد اعتراه الوجع:

- أنا أشعر بألمٍ شديد.

ويتقافز مؤشر ضربات القلب على الشاشة بجواره، وينتهي الأمر بصوت صفير جهاز القلب الذي يرسم خطًّا أفقيًّا على الشاشة.

- لقد كان طيّب القلب وفي ريعان الشباب! هذه الـ(كورونا) اللعينة لم تستبقِ لنا الكثير من الأحباب، أودتْ بهم إلى وديان الهلاك.

- "لقد تحدّثتُ إليه، كان على خير ما يرام".

تقولها امرأة تتّشح بالسواد، وترتدي كمامة بلون ملابسها، وتغرورق عيناها بالدموع. تربت عليها أخرى بجوارها مواسية وهي تقول:

- "هوّني عليك يا عزيزتي".

فتنظر إليها وعيناها تفيض بالدمع، وتضع رأسها على صدر الثانية وتبكي في حرقة. تضمّها وقد تأثرت بنواحها فبكت هي الأخرى.

- "لقد ذهب الرجل والولد ولم يبقَ سواي. لقد تُركت لأتعذّب بقية عمري..."

- "رحمهما اللّه! لا تقولي مثل هذا الكلام... فهذا قَدَرُ اللّه ونحن نؤمن بما قَدّر".

- "كيف لي أن أمكث بدون الولد، قرة العين، وبدون السند، لبّ الفؤاد؟ كيف تكون الحياة بدون أن أبدأ يومي بابتسامتهما، وتضيء ليلي ضحكاتُهما؟ ومَنْ لي مِن بعدهما يُذهب عني حزني ويواسيني إذا مسّتني البأساء والضراء؟ لقد مُنعت من أن أراهما قبل أن يواريهما التراب تحت مدعاة المرض المتفشي بين الناس. لست أخشى المرض أو الموت، ولكني أخاف الوحدة".

- "اعتصمي باللّه؛ فهو الصمد، وهو المعين، وهو الذي يذهب الحزن ويرفع البلاء".

تسكت ويغشى وجهها حمرة وكأنها توشك على الانفجار، فتصرخ بكل ما أوتيت من قوة:

- "يا لعمري! أضحيتُ مكلومة بفراقك يا بني، وترملّتُ بعد فقدانك يا زوجي".

- "هدّئي من روعك يا رنا، فكلنا إلى اللّه راجعون".

- "ويحي لقد صرتُ أندب فقيديّ وحدي. وأنوح عليهم حتى يذهب نور بصري".
وإذا بها تشقّ ثيابها، وتنهال على وجهها باللطم، وتدعو على نفسها بالبوار.
فتقول المرأة الثانية وقد عجزت عن إيقافها:
- "لا حول ولا قوة إلا باللّه! لن ينفعك ما تفعلينه، فهذا واللّه من أفعال الجاهلية".
- "اتركيني وشأني، فما أدراكِ بمصابي، فعندك زوج وأبناء تأنسين بهم ويأنسون بك. أمّا أنا فقد نزع اللّهَ قلبي من بين أضلعي، وأبقاني ميتة على قيد الحياة!"
- "لا تقولي مثل هذا الكلام، فما عند اللّه خير وأبقى. وإنمّا يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب. أفيقي أخيتي! فحزنك مقبول، ومصابك عظيم، أمّا جزعك فيجعلك تتجاوزين الحدّ وتفعلين ما ليس من ديننا نحن المسلمين".
- "أصبحت واعظة الآن، عِظِي نفسك وذويك قبل أن توجّهي إليّ عظاتك، فما بال ولدك تميم يجول الأسواق ويغازل الفتيات، وما خفي كان أعظم".
- "إنا للّه وإنا إليه راجعون! أتقذفين ابني بالخطيئة؟ سامحك اللّه! أنا أعلم أنك مجروحة بجرح لا يندمل، ولكن لا يجوز لك أن تتفوّهي بمثل هذا القول العظيم".
- "إنّه بيتي، أفعل فيه ما أشاء، اتركيني إذا شئت، فقد وَفَّيت وأدّيت".
تكاد الدموع أن تنهمر من مقلتي المرأة وقد لاقت من رنا شَرًّا عظيمًا، وهي التي أرادت أن تواسيها وتكون لها ظهيرًا في مصابها. فتخرج من البيت مسرعة دون أن تتكلم أو تنبس ببنت شفة لا تلوي على شيء.

مرّت على هذه الواقعة عدة أيام، ورنا منغمسة في حزنها، تكاد أن تموت فرقًا على وليدها وزوجها. وجومها صار شيئًا معتادًا وشكيمتها أضحت سرابًا. في مخيلتها واقع آخر لحياة مستقرّة لأسرتها... تخاطبهم وكأنهم واقفون بين يديها... تبادلهم النكات والضحكات. تستفيق من جنونها هذا لتجد نفسها وحيدة مذعنة للواقع المرير؛ فتصرخ ألمًا، وتبكي الأيّام التي مرّت عليها مرور الكرام. تراودها نفسها أن تنهي حياتها بيدها لتلقى حَبِيبَيْها. وعزمت على أن

يكون هذا سريعًا. فأمسكت بالسكين، تريد أن تقطع شرايين يدها. تنظر في السكين الحادّ الذي تقرّبه شيئًا فشيئًا من معصمها.

- توقّفي يا أمي!

صرخته أيقظت شيئًا فيها، شيئًا أعاد لها وعيها الذي فقدته. رأته ماثلاً أمام ناظريها محاطًا بنور لا تعرف مصدره، ابتسامته زادته ضياء، وقوامه المتناسق جعله أكثر وسامة، وكأنه مَلَك من السماء وليس بَشَرًا...

- حبيبي يا ابني، هل انتقلتُ معك إلى الرفيق الأعلى؟

- لا يا أمّي، ما زلتِ على قيد الحياة.

- أريد أن ألحق بأبيك وبك يا قرة عيني.

- ليس هكذا يا أمّاه. نحن في حاجة إليكِ. أنتِ مبعث الأمل وبكِ لا ينقطع العمل.

- كيف هذا يا ابني، فداك نفسي؟

- تصدَّقي يا أمّاه؛ فعملنا لا ينقطع بالصدقة الجارية.

- وما الصدقة الجارية؟

- هي الصدقة التي تبقى بعد موتنا ويمتدّ أثرها الطيّب على الناس.

- كيف حالك يا ولدي؟ وكيف هو حال أبيك؟

وفجأة اختفى!

-أين ذهبت يا ولدي؟

لقد أُذهِب عن ناظريها دون سابق إنذار، لتراهما هو وأباه معًا... وهما يصطرخان. لم تفهم ما الذي تعاينه لوهلة. الألم الذي لا يحتمل كان باديًا على وجهيهما، وصوت نحيبهما كان يمزق لباب قلبها. تحاول أن تقترب منهما ولكن قدماها لا تطاوعها. وفؤادها ازداد لوعة عليهما. فتصرخ:

- ماذا بكما؟ لماذا تتألمان؟

ويتداخل مع صوت النحيب والصراخ صوت بكاء امرأة، لقد كانت خليلتها تلك التي نهرتها وأهانتها... رأتها وهي منزوية في أحد الأركان تضع وجهها بين راحتيها.

تفتح عيناها لتجد أنها لم تذهب في أي مكان، فالسكين في يدها تنحر في الجلد والدماء تنساب من الجرح، فتلقي بالسكين وتهرع لتأتي بقماشة تضعها

على هذا الجرح النازف. لعل ما عاينته كانت رؤيا أو إلهامًا أو وحيًا. لا تدرك تحديدًا ما كنهه، ولكنها أيقنت أن مآلها ليس الموت، بل أن تحيا. وأن ما ارتكبته مع أم تميم ذنب عظيم؛ يتعذّب به فقيداها بلا ريب. فمشطت شعرها، وغسلت وجهها من أثر البكاء، وارتدت عباءتها السوداء، لتذهب إليها لترجوها أن تصفح عنها. لذا كان ردّها:

- غفر اللّه لك يا حبيبتي، مقدَمُك في حدّ ذاته مكرمة عظيمة.

تتمعّن فيها وتردف:

- أراك أكثر هدوءًا وطمأنينة، فما السرّ يا ترى؟

- لقد أدركت أن حياتي لها قيمة، وقيمة عظيمة... وأن محبتي لهما تقتضي أن أحسن العمل وأتقرب للّه -عز وجل- بالطاعات والصدقات، عسى اللّه أن يعفو عنهما ويغفر لهما.

- اللهمّ آمين! زادك اللّه تقوى، ووفّقك لكلّ عمل صالح، وغفر اللّه لهما وتغمّدهما بسعة رحمته.

ملاذ

حفصة زاهي

استيقظتُ صباح اليوم على وَقْع صفّارات مدوّية لسيّارات الإسعاف، أظنّها إصابة جديدة بالـ(كورونا)، هكذا نحن منذ أيّام، ننام ونَصْحو على أصوات مرعبة، نعيش سجنًا ما ظننّا أنّنا سنعيشه يومًا... لا خروج من المنزل إلاّ بتصريح رسْمي من الشّرطة أو السُّلطات الحكوميّة، إنّنا نُرْغَمُ على تقييد أجسادنا وأرواحنا في منازل لطالما فَرغت من ساكنيها، كلّ العالَم يَهْذي بالـ(كورونا)، كالوحش الكاسر... يلتهم القويّ والضّعيف... الغنيّ والفقير... الأبيض والأسود... العربيّ والأعجميّ، الكلّ يتساوى في هذه المحنة، حربٌ شرسة ضدّ فيروس خفيّ... لكنّنا برحمة اللّه أحسن من غيرنا، أحسن من تلك الدُّول التي صنعت أمجادها على فوهات البنادق، أحسن ممّن اعتلوا الكراسي على أذقان الضُّعفاء والفقراء، أفضل بكثير ممّن أَوْهمونا أنّهم مُنقذو البشريّة.

في بَلَدي الكثير أُصيب وقليل من المَوْتى، يَتملَّكُنا الخوفُ من سعالٍ أو عطسة، أو حرارة تُلهب الجسم، ونَترقّب ما هو آتٍ بحذرٍ شديد ممزوجٍ بأحاسيسَ غريبة، مزيجُ من الاستسلام والخضوع واليأْس، والأمل الكبير في ربِّ العالمين، نحاول بكلّ ما أوتينا من علْمٍ وحِرْصٍ وصَبْرٍ دَفْع هذا الوباء.

رَنَّ جَرَسُ الباب، هَرَعْتُ لفتحه... إنّها جارتي حَليمة تَنْقُلُ لي خَبَرًا مريعًا كعادتها، أُحاول التوازن؛ لأسمعَ ما لديها، وبكلّ هدوء أقول: خَيْرًا إن شاء اللّه! ما الذي حَدث؟

تَرُدُّ هي في سخرية: وما يُدريك أنّه خبر سيء؟

أردّ عليها: أدعو اللّه أن يكون خبرًا جيّدًا! لكنكِ للأسف لا تَزُفّين لي إلاّ الأخبار السيّئة.

تَردُّ حليمة في عجلة: زوجة الحاجّ رشيد انتحرت؛ لقد اعْتلت عمود الكهرباء وأمسكت الأسلاك بيديها متجاهلة صراخ زوجها ومحاولاته لها بالنُّزول، لقد تفحمت جثّتها في ثوانٍ معدودة.

أَرُدُّ أنا في ذهول وحسرة: إنا للّه وإنا إليه راجعون... لطفك يا رب! ارحمها برحمتك يا اللّه! إذن فسيارات الإسعاف التي سمعتُ دويّها صباح اليوم كانت آتية لنقلها؟

تردّ الجارة: أجل... لقد وجدوها جثة هامدة، ولقد حاول العديد من الناس المتجمهرين ردْعها لكن دون جدوى، مسكينة... لو رأيت أولادها؛ إنهم في حالة يرثى لها، لقد مَرَرْتُ من هناك بالصُّدفة، لكنّي رأيت كَلَّ شيء.

أردّ عليها مُوَبِّخَة: وهل هذا وقت الخروج...

تردُّ في حزن: زوجي غائب وابني مريض، اضطررت لأخذه إلى المستشفى، وكما ترين، أنا محتاطة جيّدًا ضدّ هذا المرض، وهذه الكمامة لا تفارقني، كما أنَّني لا أُسلِّمُ ولا أصافحُ أحدًا.

قلتُ لها بحَزْم شديد: حسنًا... ابنك يحتاجك، اذهبي بسرعة ولا تتركيه... هكذا أردتُ التخلّص من حليمة كثيرة الثرثرة، والوضعُ الحالي لا يَسمح لي بالحديث معها طويلاً كالسابق، إنّنا في فترة الحجر الصّحي ولا أريد أن أُخلّ بالالتزام به.

دخلتُ البيت والألمُ يعتصرني ممّا سَمِعْت، المرأة المنتحرة أمّ لتسعة أطفال، حالتها المعيشية جدٌّ مزرية، فقر وجوع وأمراض فتكت بجسمها النّحيل... وزَوْج قاسٍ، هنا اكتملت الحكاية، وكانت النّهاية، رحمها اللّه وغفر لها!

المسكينة كانت زوجة شجاعة ومجاهدة أيضًا، لطالما أَسَرَتْني بقوّتها وصلابتها في مجابهة الصّعاب، كانت مثالاً للأُمِّ الحنون العطوف على أبنائها، وعلى أبناء الحيّ كلّهم، لا تُفارق البسمة وجهها المنير؛ بالرّغم من تقاسيمه وتجاعيده التي توحي لكل من يراها بمدى قساوة الحياة التي تعيشها، تخفي همًّا وحُزنًا كبيرين وراء تلك العيون العسليّة، تحاول مواراة تعبها وعناءها من أجل الحصول على بِضْع دنانير؛ بالكاد تكفيها لشراء الحليب والأرز لأبنائها التسعة، إنّها تعمل مُنَظِّفة في إحدى المدارس، ولا تجد حرجًا في العمل لدى أصحاب الحقول والمزارع في أوقات عطلتها، تقطف الثمار، وتجمع الخضر

والفواكه المتناثرة، ولا تشكو هَمَّها لأحد. لكنّها اُبْتُلِيَت بزَوْج بخيل وسيّء الخُلُق، قَتَلَ النَّفس الجميلة في تلك المرأة الكريمة، وأَرهقها ظُلمًا، ولم يسلم حتى أبناؤه من معاملته السيئة، لقد عاشت تلك السيّدة في ظل الزوج الطاغية سنوات من الذل والضرب والإهانة، وكابدت العذاب النفسي والجسدي وهي صابرة محتسبة، لكن المسكينة رسمت نهاية بشعة لحياتها.

أعددتُ فنجان قهوة، فتحت مذكراتي، أريد أن أكتب شيئًا، حُزْن عميق بداخلي يرغب بالبكاء والعويل، ولا بدّ لأناملي أن تُخَفِّف العبء عن نفسي قليلاً، كيف للإحباط أن يأخذ مأخذه ويدمّر الإنسان، كيف للشيطان اللّعين طريق إلى عقول البشر وقلوبهم، يَشُلُّ تفكيرهم ويحطّم أفئدتهم، فلا يعقلون ما يفعلون، ويُقْتادون إلى الهاوية!

أذكرُ أنّني في وقتٍ ما فكّرت في الانتحار، إنّها فكرة هدّامة تعتريك، ثمّ إذا هي تمكّنت منك؛ فلن تفارقك، فتتملّكك وتغزو عقلك وقلبك وكلّ جوارحك، وتستسلم لليأس الذي يُغريك بالخلاص من عذاب الدنيا.

كانت تلك فترة مريرة شديدة عليّ، وقد بَلَغ بي الإرهاق مبلغًا لم أستطع حينها مداعبة أحاسيس الأمومة لديّ، كنت قد أنجبت ابني الأول، وقبلها قاسيت كثيرًا فترة حملي، إذ أصابني التهاب في جميع المفاصل، فقدتُ القدرة على الحركة، ولازمتُ الفراش لأشهر عديدة، وبعد الولادة زادت معاناتي، هجرني النَّعاس تمامًا مدّة عامين متتاليين، ابني الرّضيع لا يرقد الليل ولا النهار، يستمرُّ في البكاء لساعات طوال، مُجرَّدُ ذكر الأمر يصيبني بالهلع، كان معدل النوم لديّ عشر دقائق يوميًّا أنامها بشكل متقطّع، كنت أعيش حياة كئيبة، أرقٌ، وإعياءٌ، ومشقّةٌ كبيرة، كان الصّداع لا يفارقني.. وخفقان في القلب وضيق في التنفّس، أبغضت نفسي وكلّ من حولي، لم أهنأ بلحظات الدفء مع رضيعي، ولم أُحِسّ بِرِقَّته وقُربه ووُدّه، كانت أحاسيسي قد تَوَشَّحت السّواد، وأفصح وجهي عن ملامح العبوس والانكسار، واستمرّ بي الأمر لدرجة الاكتئاب، كنت أُحاول إظهار معاناتي للجميع، علَّ من يسمعني يفهمني، أو على الأقل يخفّف عني بعضًا ممّا أعانيه، لكن لا أحد! أجتهد لرؤية الصورة من زاويتي، لم أسمع سوى كلمات متناثرة هنا وهناك، وكنت أريد التنفيذ، كانت أعظم أمنياتي أن تُطبق عيناي لأنام، حملت رضيعي لأشهر طوال ليلاً ونهارًا محاوِلةً إسكاته عن

البكاء فقط، ووَاللّه ما سألتُ اللّه حاجة وقتئذ غير توقّف ابني عن النحيب، وأنا لا حول لي ولا حيلة أمام هذا الأمر الجسيم، كنت أستغيث وقد خارت قواي تمامًا، أمدّ يدي لعلّ سائلاً عني ينتشلني ممّا أنا فيه ويدفعني إلى برّ الأمان، لكن هيهات، أيقنت أخيرًا أنني في زمن القاسية قلوبهم، تأخّرتُ كثيرًا لأتقبّل الأمر، ثم حَزَمْتُ أمري بالصمت، وعدم سؤال الناس حاجة، سِرتُ وحيدة بلا معين؛ أغوص في بحر القنوط، وقد شارفت على الهلاك، وعيل صبري، فقرّرت في لحظة يأس الاستسلام والهروب إلى حيث لا أدري، وجالت بخاطري كلُ صنُوف الانتحار، وتدحرجت الطّرق والوسائل القاتلة إلى ذهني كلٌّ يحاول استمالتي إلى أسلوبه الدّنيء في كتم أنفاسي، لولا رحمة اللّه بي... لولا العليّ القدير الذي يرسل لي نفحات إيمانية تنير لي دروبًا حالكة...وتحلّ أمورًا شائكة، كلّما استغفرت ربّي؛ تذكّرت حبّه ولطفه ورحمته بي وبعباده، كلّما وحّدته وتذلّلت إليه؛ رفعني، وكشف عني همّي، كلّما أَقْرَرْتُ بذنوبي وطلبت المغفرة؛ انشرح صدري وتيسّرت أموري، وحمدته على الكثير من النّعم، فغيري يتمنّى ولدًا واحدًا يُؤنس وحدته، وكم من زوجة حطّمتها أَلْسِنة العابثين بمشاعر الناس بكلمة عاقر، وكم من زَوْج طأطأ رأسه أمام الرجال؛ لأنه مقطوع الذرية، وكم من أزواج هفت نفوسهم إلى كلمة (أبي وأمي).

رزقني اللّه قوّة في الصّبر والتحمّل، وكنتُ إذا اتخذ اليأس طريقًا إلى نفسي مرّة أخرى؛ عاودتُ الاستغفار، واستذكرت سريعًا حال الأنبياء والصّالحين من قبلي، إنّ في قصصهم عِبَر وحِكَمًا، وكذلك برهانًا؛ لمن كان في قلبه مثقال ذرة من شكّ بقدرة الخالق -عز وجل-، فالاستغفار ليس فقط كلمات نردّدها طلبًا للنجاة، بل هو تواصل للعبد مع ربه، وشحن للهمم، تعطيه اليقين الكامل بأنّ يد اللّه تحرسه، وتمدّه بالعون والثبات في هذه الحياة.

لقد تحقّق لي ما كنتُ أنشده، وانكشفتْ آيات الاستغفار أمامي، لقد كنت جاهلة بالأثر العظيم لتلك الكلمات في نفسي، ولا أدرى إن كان جهلاً حقًّا، أم غفلة منّي، أم تقصيرًا؟ لكنّها كانت وما تزال طوق نجاتي، ومُصحِّح مساري، وسّر صبري على البلاء والابتلاء، وثباتي زمان المحن.

لقد كنت أستغرب كثيرًا حين يحتدم الخصام بين اثنين ويبادر أحدهما بالاستغفار، يستشيط الآخرُ غضبًا ويتّهمه بقلّة الأدب والدّين، كنت أستغرب

من السفهاء، الذّين لا يفقهون في الإسلام شيئًا، ويُؤَوِّلون كلّ ما في هذا الّدين القيّم بما تهوى أنفسهم.

إن أكثر ما زادني ثباتًا في كُربتي نازلةٌ أخرى أصابت أبي والعائلة كلّها، إنّه السرطان الذي أنهك جسد والدي. كان -رحمه اللّه- قويّ البنية، طويل القامة، أبيض البشرة، أشقر الشعر، كان رجلا حَيِيًّا، مؤمنًا طائعًا لربّه مستغفرًا لا يفارق الذِّكر لسانه، محبًّا للعلم والقراءة، أنجب سبعة أبناء يشهد لهم الناس بالخُلُق الرّفيع، والأدب الحسن والذكاء والفطنة، ما سمعته تذمّر من شيء قطّ، أكثر ما كان يزعجه تقاعسنا أحيانًا عن أداء واجباتنا الدّينيّة والدراسيّة، كان همّه أن نبلغ من العلم أرقى الدّرجات، وأن نتقلّد أوسمة العلماء والناجحين، دونما إفراط ولا تفريط في عقيدتنا الإسلاميّة.

سألته مرة وهو يبحث داخل مكتبته الصغيرة في بيتنا المتواضع عن كتاب يقرؤه: بمَ تنصحني يا أبي؟ أنا في عُطلة ولديّ وقت كاف للمطالعة.

أجاب بدون أدنى تفكير: كتاب (العقيدة في الإسلام)... إنّه أوّل ما قرأتُ وأنا شابّ، ومن بعدها استقمت والْتَزمْت... أسأله في حيرة: وبمَ التزَمت؟

يردُّ بابتسامة عريضة: بالطّريق الصحيح، ولازمت الاستغفار حتى أَثْبُت.

أردّ والدهشة على وجهي: كلامك مريح يا أبي! لكن هل يُعينك الاستغفار على الثّبات حقًّا؟ أقصد... أليست هناك وسيلة أخرى تقوّي عزيمتك على المثابرة والمواظبة، ثمّ أ... أليس الاستغفار طلبًا للتوبة من الذّنوب؟

يجلس أبي على الكرسيّ حاملاً بيده كُتَيِّبًا، ثمّ يلوّح لي بيده الأخرى طالبًا مني أن أدنو منه، ثم يهمس لي: سيُّد الاستغفار... سرّ عجيب بين العبد وربه، وحِصن له من الانحراف عن الطريق السويِّ.

- وما هو سيّد الاستغفار؟ أسأل ثم يجيبني بكلِّ وَقار: **سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: "اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"**، وقد لازَمتني تلك الكلمات وما فارقت لساني منذ تلك اللحظة.

نشأ وَالِدي يتيمًا، وقد عاش متنقّلاً من بيت لآخر، حاجته للأمان الذي افتقده منذ أن كان صغيرًا جعلته يبذل أقصى ما في وُسْعِه لتهذيب نفسه

وتطوير ذاته، والنهل من مختلف العلوم... تزوّج وأنجب بنات وبنين، وكَرَّس كلّ وقته لتلقينهم التربية الصالحة، والعلوم النافعة، والدّين القويم، وارتكز في مسيرته التربوية على أُسُسٍ متينة، وهي إخلاص النية للّه -عز وجل-، ثم بناء جيل منضبط ومستقيم ومتعلم.

كان -رحمه اللّه- قدوة للكثيرين، متواضعًا لا يردّ حاجة أحد، ملتزمًا بالصّلاة والذكر، واصلاً لرحمه؛ بالرغم من أن الكثير منهم آذوه، كنت دومًا أتعجّب من قدرته العجيبة على نسيان الإساءة، وتبسيط الأمور، والتماس الأعذار، ولكن الرحمة طبعت في قلبه، وزَيَّن التسامح روحه البريئة، وفاح عطر لسانه بالكلم الطيّب.

مرضه كان ابتلاء كبيرًا، وهو -رحمه اللّه- كالجبل صامدًا متوكّلاً، تعايش مع المرض منذ بدايته راضيًا بقضاء اللّه وقَدَره، وأستحضر جيِّدًا قوله حين صارحه الطبيب بالمرض لأول مرة، لقد استغفر، ورفع يديه للسماء مُردَّدا: "اللهمّ اؤجرني في مصيبتي، وأخلفني خيرًا منها يا ربّ!".

رحلته مع العلاج الكيماوي قاسية ومضنية، أتذكّر رجوعه من المستشفى مُنهك القوى وقد عافت نفسه كلّ شيء، يقاوم الآلام بلا تذمّر، لا يَكُفّ عن الاستفراغ، ولا يغمض له جفن، وقد تمَكَّن المرض الخبيث منه، فخرَّب جميع أعضائه وحواسّه، وعَشَّشت الفطريات داخل فمه، وهزُل جسده، ولم يبقَ منه غير العظام بارزة من تحت الجلد، تذكّرته يومًا وقد اشتدّ به المرض؛ وهو يقول في رضا وطمأنينة: إنّ ما أصابني رحمة من العليّ القدير، ابتلاء يحطّ به ذنوبي لألقاه نقيًّا طاهرًا.

وأذكر أنّه في الأيّام الأخيرة من حياته تضعضعت صحته، ودَبَّ الضُّعف في أعضائه، وخارت قواه، وثَقُل لسانه، والتهب جلده، وآلمته أجنابه، وصرنا نتداول في تقليبه يمُنة ويسرة، وجاءت ليلة وفاته... ليلة عصيبة مرَّت علينا إذ اجتاحته رعشة ورجفة، وارتفعت درجة حرارته، كنّا مجتمعين حوله، وكان يمسك بأيدينا ويضغط عليها بشدّة، تحتبس الدموع في أعيننا، لم نكن نريده أن يرى أو يَشْعُر بالأسى والحسرة التي تكتنفنا، لم يفارق الاستغفار لسانه، ينظر إلينا نظرة وداع وإشفاق أيضًا، وانهمرت دموعه... لأوّل مرّة في حياتي أراها تتساقط تباعًا على وجنتيه، إنّه لا يستطيع الكلام لكن نظراته الأخيرة قالت الكثير، فقد

ثَبَّت بصره ناحيتي وقد أحسستُ به يجيب على تساؤلاتي الكثيرة له فيما مضى، وبعبارة واحدة شعرتُ به يجيب: "لهذا قد عَمِلْتُ... لهذا قد عَمِلْتُ"... دقائق قليلة فقط ويشخُصُ بصره للسماء، وتصعد روحه إلى بارئها، تاركًا جرحًا غائرًا في أعماقنا، وفقدانًا لا يعوّضه أحد.

حياتي بعد وفاة أبي ليست كقبلها، لزمتُ بيتي فترة من الزمن أحاول استحضار أقواله وأعماله، ضحكه وعصبيّته، وكلّ المواقف التي جمعتنا به، وخَلُصتُ إلى أن وجودنا على هذه الأرض منْحَة ربانية، وكلُّ الأشياء البائسة التي كنا نتأفّف منها هي نِعَم من اللّه أيضًا كما الأشياء الجميلة، أرزاق من اللّه سيقت لنا من فوقنا ومن تحتنا وفي أنفسنا، وكذلك الأب الصّالح رزق كبير، لمن عرف حقّه ووفَّاه، وقد هلك من ضيَّعه.

لقد داوم أبي الاستغفار؛ ليَحُطَّ اللّه ذنوبَه وذنوبَنا، ليحمينا ويدفع عنّا البلاء، ليمنحنا قُوَّة إيمانية تدفعنا لفعل كلّ ما هو خير.

عَلَّمني أبي أن الاستغفار هو السَّدُّ المنيع ضد الإحباط والخذلان في هذه الدّنيا، وذخرًا لنا في الآخرة... أنه الزاد لمن لا زاد له، وهو الرّضا بقضاء اللّه وطلب عونه، وهو الرُّقي في مناجاته، وتهذيب للنفس أيضًا.

لقد عزَّ عليَّ فراق الوالد، أصعب اللَّحظات حين ندرك كم كنّا جاهلين بقيمة من كانوا سندًا لنا، في كلّ الأحوال والظروف... اعترضتني شدائد كُثُر، تأرجحت فيها بين الثبات أحيانًا، والجزع أحيانًا أخرى، سقطتُ وتدحرجتُ إلى مستنقع مجهول خفيّ الملامح، فقدتُ الإحساس بنفسي، خسرت أجزاء من جسدي، لكني حيّة أرزق... أتنفّس وأفكّر... وأستغفر.

استمرّت حياتي، وقد عدتُ إلى النّوم بصفة طبيعية بعد عامين من ولادة طفلي الأول، ومن رحمته –تعالى– أن أنساني مرارة تلك الأيام التي افتقدت فيها الراحة، وقد أنجبت ابنًا ثانيًا وثالثًا... وما زلت أكافح، وقد قرّرتُ كتابة يومياتي... للذِّكرى والعبرة، أنا الآن اقرأ عن ماضيّ... وأكتب حاضري... وأرسم مستقبلي كما أحبّ أن أحياه.

تحدثني نفسي دائمًا هذه الأيام عن الحَرْب التي شنَّها الفيروس كورونا على البشرية، وتَسْوَدُّ الأفكار في رأسي حتى أكاد أجزم أن الموت سيخطفنا لا محالة،

ثُمَّ أحاول أن أجد سببًا واحدًا للخلاص، فتتهاطل الأسباب من كلّ حدْب وصوْب، لأجد نفسي في الأخير بين يدي اللّه -عزَّ وجل-، تحت رحمته وعدله ولطفه، وليس لي إلاَّ الدعاء برفع هذا الوباء.

أرتشف قهوتي، ثُمَّ أُكمل كتابة بَعْضِ الأسطر من مذكراتي، أسعى إلى التنفيس عمّا بداخلي بالطُّرُق السلمية، وأجتهد في التقاط التفاصيل الدقيقة من حياتي، وحياة كلّ المُلْهِمين من حولي. أرفع رأسي متطلّعة إلى الساعة فوق مكتبي؛ إنّها التاسعة! أظنّ أنّه حان وقت إيقاظ أطفالي من النوم، فمنذ أن لازمت البيت في عطلة مرضية أخذتها من مكان عملي، تزامن مع فترة الحجر الصحيّ، قرّرت أن يأخذ أولادي عطلتهم أيضًا، وأتركهم ينامون سويعات زائدة صباحًا، أيقظتهم وأعددت لهم الفطور والحمّام ، ثم جلسنا سَوِيّة؛ نراجع ما تَيَسَّر من القرآن، وبعد الانتهاء أمرتهم بإنجاز واجباتهم المدرسية، لقد حرصتُ على إعداد برنامج يوميّ لهم؛ تنوّع بين الدروس والرسم وحفظ القرآن، واللَّعب أيضًا، ولكنّي أعترف بصعوبة الأمر، فَحَبْسُ الأطفال داخل المنزل لمدة تزيد عن الثلاثين يومًا لأمر بالغ الشدة عليهم، أحاول في كلّ مرة يتمرّدون فيها عليَّ تبسيط الأمور لهم وشرح خطورة الإخلال بالقوانين، وأمتنعُ الدخول في مشاحنات معهم، فقد يزيدهم ذلك عنادًا، وهذا ما يقلقني ويُربكني، ولا أجد الملجأ إلاَّ للّه، أستغفره ليلاً ونهارًا... وأُلَقِّن أبنائي تلك الكلمات النيّرة، وأوصيهم بكلمتين: "استغفروه؛ تجدوه".

بعد يوم كامل من الشَدِّ والجَذْب مع أولادي، قَرَّرْتُ أخذ استراحة صغيرة، اتكأت على الأريكة، ورحتُ أتصفَّح نشرات الأخبار متنقلة بين القنوات التلفزيونية، أرقام وإحصائيات للمرض في العالم، إصابات ووفيات وحالات تماثلت للشفاء، نفاذ وسائل الحماية والمنظِّفات والمواد الغذائية، وكلّ شيء حتى حفَّاظات الرضع، الأمر كلّه أشبه بالكابوس، أُحيل نظري اتجاه صغاري وهم يلعبون، ورحت أخاطب نفسي، ما أسوأُ ما يمكن أن نتوقّعه، تتشابك الأفكار في رأسي، وتتزاحم الاحتمالات المستبشرة والمتشائمة، وأقفز أنا ما بين هذه وتلك.

مرَّ وقت قصير، ثُمَّ أفيق من غَفْوَتي على رِنينُ هاتفي النقّال، إنَّه رقم مدير المصحّة الطبّيّة التي أعمل فيها، أجبت مسرعة:

ـ السلام عليكم، سيدي المدير، هل من خطب؟

ـ وعليكم السلام يا دكتورة، كيف حالك هل أنت بخير؟
ـ الحمد لله، إنّنا في رحمة الله.
ـ لا أعرف ما أقول أَمْ...أَمْ... (يتلعثم في الكلام ثم يكمل) هل بإمكانك إلغاء عطلتك، إننا بحاجة ماسّة إليك يا دكتورة، المرضى كُثُر، والمرض انتشر، ولدينا نقصٌ حادٌّ في وسائل الحماية والمحاليل الخاصة بالكشف وتشخيص المرض، كلّ الطَّواقم الطبّيّة تبذل مجهودات عظيمة، يعملون بلا كلل ولا تذمُّر، ويجابهون الأخطار في الخطِّ الأوَّل من الدفاع، وأيضًا... أريدُ أن أُعْلِمَك أن الدكتورة فريدة في قسم الإنعاش؛ قد أصيبت بالعَدْوى هي الأُخرى... أَصْمُتُ قليلاً، لقد أصابني الذُّهول والصَّدمة تلك اللَّحظة لَمَا سَمِعْتُ، أُحاول أن أتمالك نفسي، ثُمَّ أردُّ عليه بنبرة حزينة: إنَّه نداء الجهاد في سبيل الله، وأنا أَوَّلُ المُلَبِّين.
- شكرًا يا دكتورة، أصيلة أنتِ والله. نلتقي قريبًا إن شاء الله.
ما كِدْتُ أقفل الهاتف، حتى فاضت عيناي بالدُّموع، ثمّ هَرَعْتُ أحتضن أطفالي، انتظَرت رجوع زوجي من عمله في مفتشية الشرطة، لأبلغه الخبر، لم أشأ مُهاتفته؛ لكيلا أزيده قلقًا؛ فزوجي منهمك بأعمال كثيرة هذه الأيام منذ أن اجتاح البلاد هذا العفن، ازدادت مَهامُه ومُهِمَّاتُه، وغالبًا ما يبيت خارج البيت يسهر على أمن البلدة.
فَوْرَ وصوله إلى البَيْت أعلمتُ زوجي بضرورة عودتي للعمل، والأكثر من ذلك أنّني سأبقى هناك إلى غاية انتهاء الوباء، لقد أَبْقَتْ الحكومة جميع الكوادر الطبية داخل فنادق قريبة من المستشفيات والمصحات الطبية؛ لتفادي نقل العدوى إلى أهاليهم، سأُفارق عائلتي وصغاري إلى المجهول، لا أدري كم سأبقى، ربمَّا أيّامًا أو شهورًا، الأمر بيَد الله -عزَّ وجل-، ولا أدري إن كنتُ سأعاود رؤيتهم من جديد، لكن عَليَّ تلبية النداء. تَقَبَّل زوجي الأمر بصدر رحب، وشجّعني على المُضيِّ قُدُمًا، ولكنّي رأيت في عينيه خوفًا وقلقًا -تلك اللَّيلة-، وندمًا شديدًا على تقصيره معي في يوم من الأيّام، لم يُرِد إظهار كلّ ذلك أمامي، ولكني استشعرت حسرته، بِتنا نذكر الله آناء الليل ونستغفر، ونُصلّي ونَتَضَرَّع، وندعوه السلامة لنا ولغيرنا.
مع تباشير الصَّباح حزمت حقائبي، وَدَّعْتُ أبنائي ودموعي لم تجفّ، أوصيتُ زوجي بهم، وأوصيته على نفسه. وانطلقنا كلٌّ إلى مصيره الذي قُدِّرَ له، لم

أشعر بالخوف ولا الجزع من هذه المهمّة، ولكن المجهول يطبع في نفسي ريبة وتوتّرًا كبيرين، حاولت تمالك نفسي قَدْرَما استطعت، أَمسكَ زوجي يدي، ونظر طويلاً في عينيَّ، ثم ودَّعني قائلاً: أنتِ في حفظ اللّه ورعايته، ولا تنسي اتفاقنا البارحة، وصيتي لك هي وصية أبيك... اِلْزَمي الاستغفار؛ فهو زادك في هذه الرحلة.

افترقنا على هذه الكلمات، وسرتُ إلى قَدَري ولساني لا يَكُفُّ عن الاستغفار، هذا كان اتفاقنا، وعهدي مع اللّه، لا أنقضه أبدًا.

وضعتُ أغراضي في غرفتي في الإقامة التي خُصِّصَت للأطباء فَوْرَ وصولي، ثم هرولت إلى عملي في مخبر التحاليل الطبيَّة، وبمجرّد دخولي إلى مبنى المستشفى شعرت بقشعريرة تسري في جسدي، وأنا أرى احتشاد الناس والمرضى، وهم في هياج شديد، وجوههم كالحة، وقد تقطّعت بهم الأسباب، الهمهمة والصَّخب يملآن المكان، وسيَّارات الإسعاف مسرعة في غدواتها وروحاتها، أحاول اختراق الجموع بحذر؛ لئلا أَحْتَكَّ بهم، الخطأ مرفوض جدًّا هذه الأيّام، إهمال الأشياء الصغيرة قد تُكَلِّفنا أرواحنا، ولا مجال للاستخفاف بأيّ شيء.

وصلتُ أخيرًا بعد جهد جهيد إلى المخبر، وشرعت مباشرة في العمل إلى جانب زملائي، رأيت الحزن يعلو ملامحهم، والخوف يأسر أرواحهم، والخشية من العدوى جعلتهم يحرصون أكثر من أي وقت مضى على التطبيق الصارم للقوانين المتعلقة بالنظافة والحماية، الكلُّ متكاتف في هذا الظرف العصيب، أما أنا فقد عقدت العزم أن أعمل بصمت ولا أنطق إلا بما أحتاجه، وأن أستغلَّ كل لحظة في الاستغفار، وحَذا الزُّملاء حَذْوي، لقد بعث فينا هذا التلاحمُ والانضباطُ قوَّةً ورباطة جأش، وأحيا فينا الرغبة في العمل، ومكثنا على هذه الحال أيّامًا عدَّة، نتطلَّع إلى المستقبل، نراقب عن كثب تَطَوُّرَ هذا الفيروس، ويزداد تَرَقُّبُنا لنتائج التحاليل الطبيّة، كلّ عَيِّنَة تصلنا، وكأنها قنبلة متفجرة، نعمل على تفكيكها وتثبيط مفعولها، قبل أن تدمِّرنا إلى أشلاء، قبل أن يتدفّق سمُّها إلى هوائنا النَّقي، فيسلبنا أرواحنا وأرواح أحبابنا ومن يعزّ علينا.

إنّنا في كلّ ثانية تمُرُّ؛ نمنَح أنفسنا الثقة باللّه، ذلك السّرُّ الذي أسرَّه لي أبي منذ سنوات، واجتمعت كلمتنا أنا وزوجي عليه، وردَّده لساني لثلاثة عقود،

وعزمتُ أنا وزملائي على جعله منهج حياة، (سَيِّد الاستغفار) رفيقي في هذا الدرب الشّائك، في العمل والبيت، في السَّراء والضَّراء، في خلواتي ومناجاتي لرب العزة... مرّة أُخرى أَجِدُه مُؤْنِسي، ودواءً لِعِلَّتي، ولمن حولي، بل وأجده النَّسيم العطر الذي يُنسينا رائحة المختبر.

مَرَّت لَيَالٍ عدَّة وأنا على هذا الحال، لا أستطيع النَّومَ من كثرة العناء، لا أُكْثِر من التواصل بأهلي حتَّى لا أَحِنَّ وأَضْعُف، وأكتفي بالاطمئنان عليهم فقط، سماع أصواتهم يطفئ نار الشَّوق لديّ ويُصبِّرني على فراقهم، واستمرَّيت بالأمل في العودة سالمة؛ لأحضن أطفالي من جديد، وأتنفّس الحرية الضائعة وسط السَّقم... تتوالى الأنباء السَّيِّئَة، وها هي تَزُفُّ لي خبر وفاة الدكتورة فريدة، لقد انتقلت إلى جوار ربّها بعد أيّام في العناية المُرَكَّزَة، وترحّل عنَّا مجاهدة أخرى، من بين المئات من الأطبَّاء والصيادلة والمُمَرِّضين، وكذلك عُمَّال النَّظافة وسائقو سَيَّارات الإسعاف الذين قَضَوا نحبهم بنفس الوباء وبطريقة بشعة يُنقلون إلى قبورهم.

لَيْتَهُم يعلمون! ليت كلُّ الناس القابعين في منازلهم، والذين يتذمرون من بيوتهم الآمنة، وأغطيتهم وأفرشتهم النّظيفة ومأكلهم ومشربهم النّقي، وكلّ الأشياء السَّالمة المحيطة بهم، ليتهم يحمدون اللّه على فضائله التي لا يتلذَّذون بها في العزل الصّحي الذي فُرض عليهم، الكثير منهم كَسَر القوانين وفَرَّ إلى الوباء بصدر رحب، وعن جهل وحمق وقِلَّة صبر الكثير منهم أيضًا حمل العدوى إلى عائلته وجيرانه، وسيق بهم إلى نهاية مفجعة.

لَيْتَ كلّ البشر ينفعون أنفسهم وغيرهم في هذه الفترة الحرجة التي تعيشها البشرية، كثيرًا ما كنت أجزم أنّ كلّ جهودنا ليست في محاربة المرض فقط، بل أيضًا التصدّي للجاهلين الذين ينشرون الوباء برعونتهم وعنادهم، وأنّ أفضل ما فرضته الدولة في هذه الأيّام، عقوبات صارمة تصل إلى السجن، ودفع غرامات ماليّة لكلّ من تُسَوِّل له نفسه خرق الحجر الصحّيّ.

كثيرًا ما فكّرت خلال هذه الفترة بعمل مفيد؛ ربمّا ينقل للناس الوجه الآخر لهذا الفيروس، فاتفقت أنا وزوجي على عمل برنامج توعويّ؛ أُصوّر فيه جميع مراحل الكشف وتشخيص الإصابة بفيروس الـ(كورونا)، هنا من المخبر الذي أعمل فيه، ويقوم هو بتبيان الجانب الأمنيّ؛ لمواجهة هذا الوباء من مقر عمله

هناك، وأهمُّ هدف نسعى إليه هو إظهار الجانب الخفيّ من الحرب على الفيروس، والتي لا يراها المواطن العاديّ، وتوعيته بمسؤوليته الكاملة عن انتشار الوباء في حالة رفضه للعزل الصّحّيّ، وهذا أقل ما يمكنه فعله في هذه المرحلة الحسّاسة، ثم قرّرنا القيام بحملة استغفار جماعية على المواقع الإلكترونيّة، كُلٌّ من موقعه، وشاركنا فيها كلّ الفئات الاجتماعيّة، كبارًا وصغارًا، شِيَبًا وشُبّانًا، نساءً ورجالاً، كان الهدف من هذه الحملة هو تقوية الوازع الديني لدى الناس، والتقرّب إلى اللّه -عز وجل-، والتذلّل له وطلب المغفرة، والدعاء بإلحاح لنا ولجميع الناس أن يدفع عنّا هذا الدّاء؛ يقينًا منّا أنّ الاستغفار هو مفتاح النجاة، ثم تأتي الخطوة الأخيرة، وهي العمل الدؤوب باستغلال الوقت في أعمال مفيدة، كلٌّ حسب اختصاصه، وحفزنا الأفكار التي تساهم في دحر المرض، وأحدثنا نقاط تواصل بين الشباب لتسهيل المهمة.

الحقيقة أنّني لم أتوقّع التجاوب الكبير مع هذه الحملة، ورؤيتي بعد أيام قلائل للآلاف من الكمامات والألبسة الطبيّة المُعَقَّمَة، ووسائل الحماية الأخرى المُصَنَّعة محليًّا تصلنا بشكل دوريٍّ إلى المستشفى، أشعرني بالغبطة والفخر... خيرة شباب هذا الوطن، والكثير من رجال الأعمال في بلدي الذين وَفَّرُوا المواد الأولية وأماكن العمل، وتكفّلوا بجميع مصاريف الشحن والنقل، وأشياء أخرى ربمّا لا أعرفها، ولست مُطَّلِعَة على سيرورتها، وأشخاص كثر في كلّ بقاع البلاد أجهلهم، بذلوا ما في وسعهم لإنقاذ الأمة من خطر مهلك.

مرّت ثلاثون يومًا من الكفاح، سقط العديد من الناس فريسة الوباء، فمنهم من انتصر، ومنهم من قضى نحبه، ومنهم من ما يزال يصارع في عزم وثبات، أما أنا فقد أصابني الوهن والفتور، وآلمني البعاد والتفرق عن أهلي، وهفا قلبي إلى أبنائي، أحاول الصمود وأنا أرى تكالب الأحزان علي، فيذكّرني رفيقي ومؤنسي الغالي بالثواب العظيم، والرزق الكريم الذي يعطيه اللّه لعباده الصابرين والمستغفرين، وداومت على هذه الحال حتى أُصبت في أحد الأيام بزكام حادّ، وارتفعت درجة حرارة جسمي، واشتدّ سعالي، تَطَوُّرُ الأمور معي بشكل سريعٍ وإلى الأسوأ؛ جعلني أشكّ بإصابتي بالـ(كورونا)، فقرّرت الصعود فورًا إلى قسم الاستعجالات، وعمل التحاليل المناسبة، توقفت مؤقتًا عن العمل إلى حين صدور النتائج، لازمت سريري في المستشفى أتلقّى علاجًا للأعراض

التي ألّمت بي، عزلت نفسي، وتجنّبت مقابلة الجميع، شعرت بوحشة المكان وقرب أجلي، وشعور سيء يراودني لا أفهم مصدره، حزنت لرؤية المريضات من حولي متشائمات مستسلمات تمامًا أمام البلاء؛ فقرّرت عدم الانصياع وراء الأفكار السلبيّة، فلطالما كنت القدوة في التفاؤل، وخطبت فيهم قائلة: أنتنّ يا معشر القوارير، فيكنّ أمهات وبنات وأخوات وحوامل، كلّ واحدة منكنّ تركت خلفها أحبّة، آباء وأبناء وأزواج وأقرباء، أنتنّ القدوة لهؤلاء، أنتنّ الأمل والفرح، أنتنّ التحدي والصبر، أنتنّ السكينة والأمان، أنتنّ الحياة الطيّبة التي ينتظرها أحبّاؤكنّ، سأدعوكنّ لصحبتي الغالية ورفيقنا جميعا هو الاستغفار، كلّ واحدة فيكنّ تجتهد في ترطيب لسانها بالاستغفار، ولنبدأ على بركة اللّه. وما إن أنهيت كلامي؛ حتى ذرفت النسوة الدموع، ورُحن يهلّلن، ويُكَبِّرْن، ويستغفرن، أشعر ببهجة كبيرة، وأنا أرى نور الأمل يشعّ فيهنّ من جديد، العبرة ليست بالاستغفار فقط، بل بدوامه والعودة إليه كلما هجرناه، لقد عشت أجواءً إيمانية رائعة، أنستني وحشة الزمان والمكان، أنستني المرض بكلّ تفاصيله المريعة، صحبتي للنساء أيقظت فيّ مشاعر الإخاء والحُبِّ في اللّه وللّه من جديد.

اليوم تتّضح نتيجة التحاليل الطبية، وكنت قد روَّضتُ نفسي على تَقبُّل الأمر برضا وقبول كبير مهما كان، لقد حضر مدير المستشفى بعينه لإبلاغي الخبر، جاء ووجهه مبتسم، ثم قال بصوت جهوري: الحمد للّه يا دكتورة! النتائج سلبية، أنت غير مصابة بالفيروس. ردّدتُ أنا بابتهاج: الحمد للّه رب العالمين. ثم أتمَّ كلامه: تكملين فترة الحَجْر الصّحي ثم تعودين إلى بيتك. لَمْ أصدق ما سمعت، وظننت أنّي سمعت شيئًا مغايرًا؛ فطلبت منه معاودة الكلام، فكرَّره، ثم زاد بالقول: تحتاجين إلى الرّاحة، وقرّرتُ أن تأخذي عطلة؛ حتى تستعيدي نشاطك، لقد أبليت بلاءً حسنًا وهذا أقل شيء يمكننا منحك إياه. رددتُ عليه بفرحة كبيرة: شكرًا أيّها المدير! أنا ممتنّة لك كثيرًا... ثم هَمَّ بالمغادرة، وحين وصل إلى باب الغرفة استدار نحوي، وقال لي: نحن فخورون بك، وشكرًا لك على كلّ شيء.

لقد سُرَّ خاطري بهذه الإجازة، ربمّا لأنّني مريضة جدًّا، وأحتاج فترة نقاهة، أو ربمَّا لأنّي أَحِنُّ إلى عائلتي وأطفالي، أو لأنّي مشتاقة لبيتي وكتبي وأوراقي، عاجزة أنا عن وصف الحالة التي تعتريني، انفرجت همومي من بعد تلك الليالي

دار ناشري للنشر الإلكتروني

الحالكة، لكنّ جزءًا مني سأتركه هنا في هذا المستشفى، أفكّر كثيرًا في كلّ هؤلاء المرضى، وأهتمّ لأمر الأطباء والممرّضين وكلّ عمّال المستشفى، أغتمّ لسماع كلمة (كورونا)، لكنّي أثق في ربٍّ كريم غفور حليم.

اليوم والمرض يفتك بآلاف البشر، أتساءل كيف النجاة... فيحضُرني قول عمر -رضي الله عنه-: "نحن أُمَّة لا تنتصر بالعدّة والعتاد، ولكن ننتصر بقلة ذنوبنا وكثرة ذنوب أعدائنا، فإذا تساوينا بالذنوب، كانت الغلبة للعدّة والعتاد".

وإنّي أستغفر الله لي ولكم، وأدعوه نصرًا على الجهْل والبلاء، والأعداء.

هزيمة كورونا

ياسر الششتاوي

قرّرت أن أحكي قصتي؛ كي يستفيد الناس منها، سوف أحكيها من خلال الفيسبُك، سوف أخرج عليهم من خلال البثّ المباشر للفيديو، وأقول لهم عن كلّ ما يجول بخاطري، وما وجدته خلال تلك الرحلة العصيبة ذهابًا وإيابًا، وكيف رجعت إلى وطني مرة أخرى؟! بسبب شيء لا أراه... شيء هزم الجميع، مع أنه لا يُرى بالعين المجردة، لم يهزم الأفراد وحدهم، بل هزم الدول أيضًا، هزم أعتى الدول وأقواها، وكلّ الصواريخ، والأسلحة النووية، وغيرها من الترسانات الرهيبة أصبحت صفرًا على الشمال؛ إذا قورنت بهذا الشيء الذي لا يُرى بالعين المجردة، شيء أعطى الجميع درسًا قاسيًا، ولكن هل فهمنا الدرس؟! لعلّ الأيام القادمة تكشف عن النتائج هل رسبنا؟! أم أننا يمكن أن ننجح؟ وهل يمكن أن يتحول حال الأرض من حال إلى حال؟

أخرجت محمولي، ودخلت صفحتي على الفيس، ثم ضغطت على فيديو مباشر، وهذه أول مرة أفعلها، فلم أخرج على المباشر في الفيس قبل ذلك، ولم أكن أرى في حياتي ما يضطرّني لفعل ذلك، ولا أود أن أزعج الناس برغبتي في الظهور الفيسبُكيّ، خاصّة أنني أحبّ الهدوء، ولا أشغل بالي ببعض الأمور التي قد يظنّها الناس ذات أهمية، فالكثير مما يهتم الناس به، لا يمثل عندي شيئًا، فلقد علمتني الحياة الاقتصاد من (البروباجندا)؛ كيلا تتحول لديّ إلى مرض، ولكن هذه المرة يجب أن أفعل، وأن يفعل الجميع، وألا يخفي أحد معلومة أو تجربة، لعلنا نهزم هذا الوحش الذي لا نراه، فالجميع أمام مصير مشترك، والكرة الأرضية كلها الآن في زورق واحد!

(السلام عليكم... أحبّ أن أحكي لكم اليوم عن قصّتي مع فيروس كورونا، وكيف قاومتُه؟ وكيف انتصرتُ عليه؟ ربمّا يستفيد غيري من تجربتي، فنحن

في هذه اللحظة في أمسّ الحاجة إلى التوعية والتكاتف، من أجل هذا أنا معكم على المباشر وأرجو ألا أكون ضيفًا ثقيلاً عليكم في هذه الليلة...

أنا شابٌّ كمعظم الشباب العربيّ، ولدت فقيرًا، ولكنّني تعلّمتُ، وحصلت على مؤهّل عالٍ، ولم أجد فرصة للعمل بمؤهّلي، فعملتُ في وطني في أكثر من مهنة، لا تليق بما حصلت عليه من مؤهّل، ولكنّني لم أكن أرى في ذلك عيبًا؛ فالعيب أن أسأل الناس، أو أمدّ لهم يد العوز، ولكن ما كنت أحصل عليه بعد فائض كدّي، كان بالكاد يسدّ رمقي، ورمق عائلتي، كنت أحلم بأن أخرج من بين أنياب الفقر، بل أن أقتله! واقتنعت أن هذا لن يحدث أبدًا، وأنا في بلدي، لابد أن أهاجر، لابد أن أسافر إلى دولة أوروبيّة، حيث وفرة المال، ووفرة فرص العمل، واحترام الإنسان، فأصبحت أوروبّا بالنسبة لي هي الجنّة التي أحلم بدخولها.

بعد أن جمعت مبلغ السفر لرحلة غير شرعيّة من هنا وهناك، بل إنني بعتُ ذهب زوجتي؛ كي أحقق حلمي، وكم تعلّقت بي زوجتي رافضة أن أسافر، لكنّني كنت أرى الفقر دومًا أمام عيني، وقرّرت أن أدفنه تحت أقدام أحلامي.

نجحت الرحلة، وعبرنا للشاطئ الآخر، مع أنّها قليلٌ ما تنجح، ولهذا كنت في خوف رهيب أن تفشل الرحلة، وألاّ نصل إلى إيطاليا، وأن أخسر المال، وكذلك الحلم، كانت مغامرة بكلّ معاني الكلمة، ولكنّني كنت مقتنعًا أنه لابد لكي تفوز بأشياء تحبّها أن تغامر من أجلها.

اخترتُ إيطاليا بالذات؛ لأنه كان لي بها قريب من بعيد، ولكن في هذه البلاد يكون الإنسان كالغريق الذي يتعلّق بقشّة، ولم يكن ياسين قشّة، بل كان جبلاً، سواء في علمه أو أخلاقه أو معاملته لمرضاه، وكان الناس في قريتنا يضربون به المثل لكلّ شيء جميل، فهو إنسان ملتزم بدينه، متفوّق في دراسته، حتى جاءته الفرصة للعمل في إيطاليا كطبيب براتب خياليّ.

ذهبت إليه، فاستقبلني أحسن استقبال، وشعرت معه بأنّني لست قريبه من بعيد بل كأنّني أخوه، فقد ساعدني كثيرًا في إيجاد فرصة عمل، وكذلك كان له الدور الأكبر في حصولي على إقامة شرعيّة في إيطاليا، ولم أعد أتجنّب الشرطة، أو تثير لديّ الذعر حينما أرى سياراتها، عملت في البداية في مطعم لصديق ياسين، وكنت أحلم باليوم الذي أملك فيه مطعمًا مثل صاحب العمل الذي أعمل به، وحكيت لياسين عن ذلك، فقال لي في الحال: سوف أساعدك

ماليًّا، وعندما يتيّسر حالك أعد لي ما أخذته من مال، لم أصدّق ما يحدث، وكأنني أحلم، فقمت، واحتضنت ياسين من شدة الفرحة، وفي الصباح أحضر لي مبلغًا محترمًا، ورحت به أجّهز مطعمي الجديد، وبدأت الحياة تبسم لي، وهذا بفضل ياسين بعد اللّه -سبحانه وتعالى-، ولكن أجمل ما في ياسين أنّه لا يظنّ أنّه فعل لي معجزة، فهو يظنّ ما فعله لي شيئًا عاديًّا، بينما أظنّه معجزة، فقد حوّل حياتي إلى حياة بحقّ!

تعلّمت من ياسين الكثير، ولكن أجمل ما تعلّمته منه قربه إلى اللّه، فرغم أنّني ولدت، وكنت أعيش في بلد مسلم، إلا أنّني كنت بعيدًا جدًّا عن اللّه، والالتزام بتعاليم ديني، فلم أعرف ديني بحقّ إلا في إيطاليا على يد ياسين، فقد علّمني الكثير ممّا كنت أجهله، وما كنت أظنّه صوابًا وهو ليس بصواب، وجعلني أصلّي بعدما كنت في بلدي لا أصلّي إلا صلاة الجمعة، وهذا الالتزام جعلني لا أنجرّ لمفاتن أوروبّا من نساء وخمر، وجعلني أركّز في عملي أكثر وأكثر، وكان يتابعني كأنّني ابنه، رغم أن الفارق في السنّ بيني وبينه لم يكن كبيرًا، مجرد بضع سنوات!

كنا نعيش معًا في شقة واحدة، وينوي في رحلته القادمة أن يحضر معه زوجته وأولاده، وساعتها سأكون مضطرًا للبحث عن شقة أخرى، كم سأكون حزينًا ألا أصاحب هذا الإنسان الجميل أطول فترة ممكنة! ولكن يكفي أنه وضعني على الطريق الصحيح، وعليّ أن أواصل السير بنفسي، وأن أعتمد على إيماني في قهر الصعاب، والتزوّد بالعزيمة!

يجلس بعد كلّ صلاة على أريكته في ركن قصيٍّ، يقرأ القرآن، ويستغفر اللّه، وأسأل ما الذنوب الذي فعلها هذا الإنسان كي يكثر من الاستغفار بهذه الطريقة؟! وعندما بحتُ له بهذا الخاطر، ابتسم ثم قال:

- هل أكون أنا أفضل من النبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم-، وقد كان يستغفر اللّه أكثر من سبعين مرة في اليوم؟! وعندما سئل عن ذلك، وقد غفر اللّه له ما تقدّم وتأخّر من ذنبه، فقال: أفلا أكون عبدًا شكورًا؟

قلت لياسين معترفًا، وأمام عيني تلوح ذنوبي القديمة:

- أظنّ أنّني لو قضيت عمري كلّه أستغفر اللّه ما وفيته حقّه؟

- فابتسم ياسين كعادته، ثم قال بحنوّ:

- شعورك بالتقصير مع اللّه شعور جميل وصحيّ، ويجعلك تغيّر من أسلوبك في الحياة، وتجوّد من نفسك، بشرط ألا يدفعك هذا الشعور بالتقصير إلى اليأس أو الإحباط، فرحمة اللّه وغفرانه لا حدود لهما، فاللّه يغفر الذنوب جميعًا، ما لم تشرك به.

ثم واصل ياسين ورده من الاستغفار، فقاطعته قائلاً:

- حاولت كثيرًا أن أكون مثلك، ولكنّني لم أستطع.

فوضع يده على كتفي، ثمّ قال:

- أنا أقلٌّ ممّا تظنّ، وأبسط من المكانة التي تضعني فيها، ربمّا حبّك لي جعلك تغالي في تقديري، أنا ابن آدم، وكل ابن آدم خطّاء.

ثم أعطاني كتابًا عن سيرة النبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم-، وقال لي:

- هذا من ينبغي أن يكون قدوتك، وليس أنا.

أخذت منه الكتاب، ونويت أن أقرأه كلّه اليوم، بينما راح يواصل استغفاره، فشعرت كأنّ هذه الشقّة التي نعيش بها، قد تحوّلت إلى جنة اللّه على الأرض. وبينما هو في استغفاره، اتّصلت به المستشفى التي يعمل بها، لوجود حالة طارئة، وهو أمهر من يعالج تلك الحالات، فقطع استغفاره، وراح يلبس ملابس العمل، فياسين مخلص جدًّا في عمله، وبينما يهندم نفسه، ويسرح شعره، رحت أسأله:

- أليس هؤلاء بكفّار... فكيف تخلص لهم بهذه الطريقة؟!

قال لي مستنكرًا:

- هذا هو العمل الذي آخذ عليه أجري، ويجب أن أخلص له، فكما قال النبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم-: "إن اللّه يحبٌّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"، وإن لم يكونوا إخوة لنا في الدين، فهم إخوة لنا في الإنسانيّة، فهذا مبدأ إسلاميّ، ألم تقرأ قول اللّه -تعالى-: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾؟ وراح يهتم في النطق بكلمة (أخاهم)، وبعد انتهائه من قراءة الآية، واصل قوله: صالح كان نبيًّا، وقومه من أهل الكفر، ورغم ذلك

لم ينزع القرآن عنهم صلة الأخوة، وهذا هو أساس التعايش، ومبدأ يجعل الدين الإسلامي ينتشر ولا ينحسر.

قلت لياسين بنبرة محمّلة بالتقدير والمحبة:

- واللّه إنني كل يوم أتعلم منك الكثير والكثير يا صديقي.

ثمّ أخرجت لمن يشاهدونني على المباشر صورة صديقي ياسين، ثم قبّلت صورته، والدموع تنزل من عيني.

وراحت تعليقات كثيرة تسألني:

- ما الذي حدث له؟

- لماذا تبكي؟!

- نريد أن نعرف ما حدث له!

حاولت أن أتماسك؛ كي أستطيع أن أواصل سرد قصّتي، وكلما تقدّمت في الحكي تزداد نسبة المشاهدة بطريقة فاقت تصوّراتي!

مرّت الأيّام سريعة في إيطاليا، سريعة من كثرة الجمال الذي أعيشه، فالجمال هنا مجانيّ، وينتشر في كل مكان، فإيطاليا بلد ساحر بمعنى الكلمة، كما أنّها أقرب الدول الأوروبيّة في الروح والملامح للدول العربية!

تغيّر حال أسرتي بالكامل من الفقر الشديد إلى الغنى، بعدما أرسلت لهم ما أرسلت من أموال، ولكن التي كانت في قلق دائم هي زوجتي، كانت تخاف أن أتزوّج عليها من إيطالية، ولا أعود لها مرة أخرى، رغم أنّني أقسمت لها في عدة اتّصالات أنّها وأولادي عندي بالدنيا وما فيها، وأنّه لا يملأ عيني سواها، ولكن رغم ذلك ما زالت على قلقها!

حاولت أن أقنعها أن ما أفعله هو من أجلها ومن أجل أولادنا، ولولا ذلك ما تغرّبت، ولا ابتعدت عنها، لعلها تقتنع في يوم من الأيام!

بعد هذه النجاحات، والإحساس بأنّ الحياة تصالحت معي، حدث شيء أغرب من الخيال، حدث شيء لم أكن أتوقعه، فبعد أن تخطّيت كل هذه العقبات يأتي هذا الشيء ليهدّ أحلامي، ويجعلني لا أعرف ماذا أفعل؟ بل أكبر الدول نفسها لم تعُد تعرف ماذا تفعل؟

كنت أوّل مرّة أسمع عنه، عندما كان يأتي ذكره في نشرات الأخبار، حيث أكّدت تلك النشرات انتشاره في الصين بطريقة مرعبة، فقلت لنفسي: أين

نحن، وأين الصين؟ كما أن إيطاليا بلد متقدّم، وبها نظام صحيٌّ ممتاز، وهي أيضًا جزء من أوروبّا، ولن تتركها أوروبّا إذا حدث بها شيء كهذا، وكان الأمر يمرّ عليّ مرورًا عاديًّا، ولكن الأمر فقدَ عاديَّته عندما وصل الوباء إلى إيطاليا بعد عدة أسابيع، ولكن لم يكن وصوله عاديًّا، بل راح ينتشر في إيطاليا انتشار النار في الهشيم!

وكانت من الأشياء التي انتشرت مع بداية فيروس كورونا كثرة تفسير الكثير من المسلمين لفيروس كورونا على أنه غضب من اللّه على الصين، بسبب عزلهم للإيغور، وظلمهم لهم، ولكنه الآن قد غزا كل الدول، فتحدّثت مع صديقي ياسين عن هذا الأمر، فقال لي: ربمّا نعم، وربمّا لا، فلقد جاء الطاعون في عهد سيّدنا عمر، وقتل خمسة وعشرين ألفًا من الصحابة، تخيل هذا الرقم في ظلّ قلة عددهم بالمقارنة بأعدادنا اليوم، كما أن كورونا في الوقت الحالي قد ضرب الدول الإسلاميّة أيضًا، بل تمّ إغلاق المسجد الحرام والمسجد النبويّ، وتمّ منع الحج هذا العام، فالعبرة أن اللّه يفعل ما يشاء، ولا يجب تفسير أفعاله حسب أهوائنا، وما علينا هو الصبر والرضا بالقضاء والقدر حلوه ومرِّه، وقد قال الرسول –صلّى اللّه عليه وسلّم– في حديثٍ ما معناه: أن الذي يموت في الوباء هو بمثابة شهيد، فإن كان الوباء غضب منَ اللّه فعلينا التوبة والاستغفار، وإن كان ابتلاء فعلينا الصبر، وكذلك التوبة والاستغفار، فالتوبة والاستغفار لا يجب أن نتركهما في السراء والضراء.

حاولت أن أتقرّب إلى اللّه أكثر، فربمّا تكون نهايتي هنا في إيطاليا، فلا يكاد يختفي صوت سيارات الإسعاف في نقل مصابي الكورونا، وأصبح صوتها يشكل لي رعبًا حقيقيًّا، وبدأت لأول مرة أفكر في العودة إلى بلدي، فإيطاليا التي كانت تمثّل لي حلمًا وجنة، أصبحت جحيمًا لا يطاق، بل ليس لي وحدي، بل لكلّ من على أرضها، فلقد تفوّقت على الصين التي هي مصدر الفيروس الأساسي، تفوّقت في عدد الوفيات وفي نسبة الإصابات!

وعندما تحدّثت مع ياسين في هذا الأمر، وأن علينا أن نفرّ بجلدنا من هذا البلد الموبوء بكورونا، ردّ ردًّا يتوافق مع شخصيته، وما بها من فروسية، وقال لي في ثبات:

- لن أفرّ من المعركة، فالموت قادم قادم، إن لم يكن اليوم فغدًا، سواء في بلدي أو في هذا البلد، فلنمُت من أجل هدف نبيل، وما أجمل أن تموت، وأنت تنقذ غيرك، ألا تحبُّ أن تموت شهيدًا.

سكتُّ، ولم أعرف كيف أردّ عليه.

وقلت لنفسي: لن أستطيع أن أكون أبدًا مثل ياسين الذي ينظر للإنسانية كلّها بعين واحدة، ويضحي من أجل مبادئه ولو بنفسه!

ثم قال لي بعد أن سكتّ:

- لا تخفْ، إن معنا السلاح الذي سوف نهزم به كورونا!

قلتُ بتلهّف، فربمّا اكتشفوا لقاحًا لكورونا:

- ما هو؟

ردّ بنبرة مملوءة باليقين:

- الاستغفار.

بدا عليّ نوع من الاستغراب، وأحس ياسين بذلك، فراح يوضّح لي فوائد الاستغفار، وأنّنا في يدنا كنز من اللّه، ولكننا لا ندرك قيمته، ولا نستغلّه حقّ استغلاله، ثمّ تلا قوله –تعالى–، وهو الحافظ لكتاب اللّه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾، ثمّ قوله –تعالى–: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾... ثمّ ذكر مقولة رئيس وزراء إيطاليا، عندما استشرى الوباء لديهم، بـأنّه فشلت حلول الأرض، والأمر متروك للسماء، وعلّق عليها: ونحن معنا الاستغفار، وهو جسرنا إلى السماء، فعندما يعجز العلم لابد أن نلجأ إلى ربّ العلم، ولا تظنّ أنّ هذا الفيروس يفعل شيئًا أو يتحرك إلا بأمر اللّه، واللّه أعطانا (روشتة النجاة) في هذه الحياة، وهي:

﴿وَما كانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُم وَهُم يَستَغفِرونَ﴾...

كلام صديقي ياسين يبعث على الراحة والطمأنينة، فأنا أحبّه وأحبّ كلامه، وشدة إيمانه باللّه.

نظرت إلى التعليقات فوجدتُ طوفانًا من اللجوء إلى الاستغفار، والدعاء إلى اللّه أن يرفع عنا الوباء والبلاء.

ما أجملك يا ياسين! فأنا دائمًا أستغفر اللّه له، كلما خطر على بالي، وأدعو له بالرحمة، فقد كان يخاف عليّ جدًّا أن أُصاب بكورونا، أو أن يكون ناقلاً للعدوى بحكم عمله في المجال الطبيّ، كان حريصًا عليّ أكثر من نفسه، وكنت أقول في نفسي، ما أحقّك يا ياسين أن تكون في زمن غير هذا الزمن! ما أحقّك أن تكون في صحبة النبي –صلّى اللّه عليه وسلّم– وفي زمنه، وليس في صحبتي ولا زمني!

ولكن الكارثة قد حدثت، لقد أصيب ياسين بكورونا، وتم اكتشاف ذلك أثناء عمله، حيث زادت حرارته في العمل بصورة مفاجئة، وقاموا بالشكّ فيه، وعزله بالمستشفى، وتأكّد بعد ذلك أنه أصيب بكورونا، بدأت أشعر أنّني قد فقدت جذوري، وأنّني كشجرة معلّقة في الهواء بدون ياسين، وجلست وسط أحزاني أفكر في مصير ياسين، ومصيري أنا أيضًا، وهل قد أصابني أم لا؟ وهل لو أصابني الفيروس هل مناعتي يمكن أن تهزمه، وأخرج منتصرًا؟ صحيح أنّني في الفترة الأخيرة من حياتي حقّقت انتصارات رائعة، ولكنّني أظنّ أنّ أعظم انتصار سوف أحقّقه، هو أن أنتصر على هذا الفيروس اللعين لو أتى لي، فهو يتسلّل خفية دون أن نراه، كأنّه لصٌّ يهوى سرقة الأرواح!

أقسى ما كان يعذّبني أنّني لم أعد أرى ياسين، وأرى بسمته الوارفة، وأسمع صوته الدافئ، ولكنّني كنت في إيمان لا يحدّه حدٌّ أنّ ياسين سوف ينتصر على الفيروس، وسوف يخرج من هذه المعركة أشدّ عزيمة وقوة، وسوف يعود ليملأ الحياة بطاقته الإيجابية!

رغم أنّني كنت في تفاؤل من حالة صديقي ياسين، وكنت أشعر أنه سينجو من كورونا إلا أنني كنت أشكّ أنّني لن أنجو، وسوف يفترسني هذا الوحش الذي لا يرى بالعين المجرّدة، إذا أمسك بي، وما كان أكثر فزعي عندما شاهدت (فيديو) لرجل مات بسبب الـ(كورونا) يقال إنّه من إيطاليا، ويتمّ حرقه؛ كيلا تنتشر العدوى، ولا أدري هل هذه إشاعة أم حقيقة؟ ولكن الحقيقة المؤكّدة أنّه

أصبح يموت يوميًّا في إيطاليا أكثر من ألف شخص على يد كورونا، والعدد مرشّح للزيادة!

لابد أن أهرب، وأعود إلى بلدي، لا لن أهرب، لابد أن أطمئنّ على ياسين أوّلاً، لن أتركه مهما يحدث لي، وكان هذا قراري النهائيّ، ولكن كانت الأيام تمرّ عليّ ثقيلة، وكأنّ هناك جبلاً يمرّ فوقي مع مرور كلّ ساعة، فأنا في عزلة رهيبة، وأنا كائن لا أحبّ العزلة، وأحبّ الاختلاط بالناس، حتّى لقد كدت أجنّ من هذه العزلة، ولكنّني قلت لنفسي أعزّيها: قد يكون الجنون أهون من الموت بكورونا!

ولكن المعجزة قد حدثت، ومن أولى بياسين كي تحدث معه المعجزة، لقد نجا من أنياب كورونا، وهزم جهازه المناعيّ ذلك اللصّ القاتل، وجعله يندم على دخوله لرئة هذا الرجل!

كان يوم خروج ياسين بعد تعافيه من كورونا، كأنّه يوم عيد عنده وعندي، وكأنّه ميلاد جديد لنا، كما أنّني لم أشعر بأيّ أعراض كورونا خلال فترة وجوده في المستشفى، وهذا يدل على أن كورونا لم يصل لي حتى الآن!

وعندما جلسنا أنا وياسين، سألني:

- أتعرف كيف هزمت كورونا؟

فمن عشرتي له، عرفت الإجابة التي في رأسه:

- أعرف!

صمت هنيهة، ثم قلت له وأنا في سعادة بمعرفتي الإجابة:

- قربك من اللّه والاستغفار.

كان ياسين في سعادة أكثر من سعادتي بمعرفة الإجابة، وراح يؤكّد صدق إجابتي:

- نعم واللّه... فأنا في الأصل مناعتي ضعيفة، وعندما علمت بإصابتي بكورونا تأكّدت أن موعد المغادرة والرحيل عن الحياة قد حان، ولم أكن حزينًا، كنت في طمأنينة ورضا تامّ بقضاء اللّه وقدره، وربمّا هذه الطمأنينة كان له دور كبير في عدم انهيار جهازي المناعيّ؛ فالخوف أكبر عدو للجهاز المناعيّ، ثم جاء دور الاستغفار، لينطلق ليس بجهازي المناعيّ وحده، ولكن بكل ذرة من كياني، نحو قوة لم أعهدها في ذاتي من قبل، وتفاؤل بأنّ اللّه لن يتركني في هذه المحنة،

فلم أكن أفعل في تلك الفترة من المرض سوى الاستغفار والذكر، حتى شعرت، وكأن معي جيشًا يمشي في روحي، وليس جهاز مناعة!

ثمّ قال، وكأنه يخشى أن أفهم الموضوع فهمًا خاطئًا:

- ولكن هذا بالطبع لا يعني عدم البحث عن دواء، فالدين الذي علّمنا، ودعانا للاستغفار، هو الذي يدعونا أيضًا للتداوي، فقد قال رسول اللّه –صلّى اللّه عليه وسلّم-: "تَدَاوَوْا عِبَادَ اللّهِ، فَإِنّ اللّهَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاّ وَضَعَ مَعَهُ شِفَاءً إِلاّ الْهَرَمَ".

فقلت له في محبّة:

- أنت واللّه يا ياسين أكثر علمًا ممّن يظهرون في الفضائيات ممّن يلتفّ حولهم الملايين، فأنت تجمع بين العلم الدنيويّ والعلم الدينيّ.

نظر ياسين لي نظرة تشي بالتواضع، ثمّ قال في اهتمام:

- أهمّ من العلم أن تعمل بهذا العلم، ولا يكون مجرّد (ديكور)، أو وسيلة للتعالم على الناس، فهذا أسوأ العلم، والجهل أفضل منه، ويكون حال صاحبه كما قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والمـــاء فوق ظهورها محمـولُ

ثمّ أردت أن أسأله عن شيء عنّ في نفسي، وأنا الذي ما زالت تسيطر عليّ هواجس العودة إلى بلدي، فأنا لا أريد أن أموت موتة الغريب، فبلعت ريقي، ثم قلت له:

- هل ستذهب للعمل مرة أخرى بعد الذي حدث لك؟!

فردّ بدون تردّد:

- نعم سأذهب، ولكن سوف أرتاح عدة أيام، فلقد أجهد الفيروس رئتي بعض الشيء، ثمّ بعدها سأواصل حربي مع هذا الفيروس.

كنت أتوقّع هذا الردّ من ياسين، ومع ذلك كنت في عجب من هذا الإصرار الضخم الذي لا يكسره شيء، فقلت له بلسان تعجّبي:

- كيف هذا؟ هل ترجع له مرة أخرى؟! هل ترجع له بقدميك؟! فلقد نجوت في المرة الأولى، فما أدراك أن تنجو في الثانية؟!

فقال لي وهو يحاول امتصاص تعجّبي:

- الذي أنجاني في الأولى قادر أن ينجيني في الثانية والثالثة، ما دام معي سلاح الاستغفار، فأنا في حماية ربّي، ربّ الفيروس وربّ كلّ شيء.

ثم أضاف:

- لو تراجَع كلٌّ منّا وخاصّة الأطبّاء، سوف يقضي هذا الفيروس على البشرية كلها، لابد أن نتكاتف كلنا، الأطبّاء يعملون ما في وسعهم، ومعامل الأبحاث تسرع في البحث عن لقاح، والناس تجلس في بيوتها بقدر المستطاع إلى أن تزول الغمّة، هذا هو الحلّ.

ولكن فرحتي بعودة ياسين لم تكتمل، فبعد عدة أيّام؛ رحت كي أوقظه من النوم، وكان من عادته أنه هو الذي يوقظني لصلاة الفجر، ونجلس بعد الصلاة نذكر اللّه، ونستغفره حتى شروق الشمس.

أهزّه يمينًا ويسارًا لا يتحرك، أنادي عليه فلا يردّ، يا إلهي! أنا لا أصدّق ما يحدث، لا يمكن أن يكون قد مات ياسين، كيف يموت ياسين؟! كيف يموت ياسين؟!

أحضرت له طبيبًا؛ زميله من شقّة مجاورة لنا، فأكّد أنه مات، توقّعت أن يكون سبب الموت هو كورونا، ولكن تبينّ أنها سكتة قلبية، وكأنّ اللّه أراد أن يكافئه على ما فعله، وعلى صفاء نيته، فأراده بجواره.

دفنت صديقي ياسين، وكأنّني أدفن نفسي، ولم أتمالك نفسي من الدموع مرة أخرى على المباشر، وعرف الآن من يشاهدون (الفيديو) لماذا بكيتُ في المرّة الأولى؟ وراحت التعليقات تنهال بالدعاء بالرحمة لياسين ممّا أثلج صدري، وشعرت وكأنني أدّيت بعضًا من قليل حقِّ هذا الصديق، الذي لم أقابل مثله في حياتي، ومسحت دموعي، ورحت أواصل قصّتي.

هل سأموت محروقًا في هذا البلد كما شاهدت في الفيديو المروّع؟! هذا البلد الذي فررت إليه، ها أنا أحلم الآن أن أفرّ منه، أنا لا أملك إيمان ولا إرادة صديقي ياسين، أنا لا أستطيع أن أظلّ هنا، سأعود إلى بلدي إلى أن يرحل هذا الوباء، وسوف أترك كل ما أنجزته هنا مطعمي ومالي، وإذا نجوت سوف أعود، ولكن للأسف لن أجد روعة ياسين في استقبالي!

هربت من إيطاليا في رحلة عودة غير شرعيّة بمركب أكل الدهر عليه وشرب، كالذي جئت به لها، فلقد توقّفت وسائل النقل في إيطاليا سواء طائرات أو سفائن أو غيرها، وها أنا في وسط البحر أعود إلى بلدي، فلقد أصبح أصحاب هذه المراكب يعملون في الجانب الآخر من أجل تهريب الراغبين أمثالي من الإفلات من المجهول، ولكن هذا الهروب قد تكون له آثار وخيمة، وينتشر الفيروس في بلدي كما انتشر في إيطاليا.

عندما نزلت إلى بلدي، وجدت الناس، وكأنّهم لم يسمعوا عن هذا الفيروس، فالحياة طبيعية جدًّا، والناس في الشوارع بكثرة، ولا يدركون حجم الكارثة التي يمكن أن تلحق بهم.

اتّصلت بزوجتي، وأخبرتها أنّني في الطريق إليهم، فلم تصدّق نفسها من الفرحة، ولكنّني أخبرتها، بل وشدّدت عليها بعدم لمسي أو الاقتراب مني، خاصة من جانب أطفالي الذين لا يدركون خطورة الأمر، كما طلبت منها أن تعدّ لي حجرة جدتي -رحمها اللّه- كي أعزل نفسي فيها لمدة أسبوعين؛ كيلا أعدي أحدًا منهم، إن كنت مصابًا، وفي خلال الأسبوعين إذا ظهرت علىّ علامات الإصابة بكورونا سوف أتصل بالمستشفى.

ما كان أصعبه من موقف! وأنت أمام أهلك، ولا تستطيع أن تصافحهم، أو تأخذهم في أحضانك، حاول أحد أبنائي أن يفلت من يد أمّه كي يرتمي في حضني، ولكنها أمسكت به بقوة بعد محاولات منه، فلم أتمالك دموعي وقتها، فلو شعر كورونا بشعوري في هذه اللحظة لرحل عن العالم شفقة بي!

دخلت حجرة جدتي، فشممت رائحة عطرة، وأكّدت لي زوجتي أنّها لم تضع أيّ نوع من العطور في الحجرة؛ فتعجّبت من هذا الأمر، ثم تذكّرت أنها نفس الرائحة التي شمّمتها يوم وفاة جدتي، أتظلّ هذه الرائحة موجودة كلّ تلك الفترة؟!

الآن أستطيع أن أفهم، الآن أستطيع أن أعرف، فقد كانت جدتي سيدة صالحة كانت دائمة الاستغفار والتوبة، ومسبحتها التي كانت لا تغادر يدها تشهد على ذلك، وكنت أمزح معها قبل أن يمنّ اللّه علىّ بالتوبة في إيطاليا، وأقول لها سوف تدخلين النار، ولكن كان ردّها عليّ أكثر من مذهل، فقد كانت تقول لي: لو أراد اللّه هذا بي فأنا راضية بناره! فمهما عبدنا اللّه، واستغفرناه؛

فهذا ليس بصكّ لدخولنا الجنة، فلن ندخلها بأعمالنا مهما عظمت، ولكن ما يعطينا الأمل هو أن نتذكّر أنّنا في يد ربٍّ كريم رحيم غفور.

وعندما نمت في أول ليلة في حجرتها جاءت لي في المنام، وأخبرتني أنّها في الجنة، وبشّرتني أنّني سوف أعبر المحنة إذا أكثرت من الاستغفار، ولكن ما حلّق بي من السعادة أنّها أخبرتني أيضًا أن ياسين في الجنة؛ فقمت من نومي على أثر تلك الهزّة من السرور، وأمسكت بمسبحتها، وظللت أستغفر اللّه حتى سمعت أذان الفجر، وأحسست بشعور مغموس في التضرّع إلى اللّه أن يسمح لنا أن نعود إلى بيته، والمؤذّن يقول: ألا صلّوا في بيوتكم، ألا صلّوا في رحالكم...

كنت أتعامل مع أهل بيتي بحرص شديد، فلا أخرج من حجرة جدّتي إلا لقضاء الحاجة، ومعي مطهّراتي في يدي، أطهّر به أيّ مكان ألمسه!

في تلك الخلوة الإجبارية؛ تقرّبت من نفسي، تقرّبت من ربّي، ربمّا هذا الوباء فرصة كي نقترب من أنفسنا، ونحدّد أولوياتنا في الحياة، فماذا ستكسب من هذا العالم لو كسبت كلّ العالم وقد خسرت ربك؟ لا شيء، وماذا ستخسر لو خسرت العالم وكسبت ربّك؟ لا شيء!

خرجت من الأسبوعين سالمًا، ولم يظهر عليّ عرض من أعراض الـ(كورونا)، ولم أشأ أن أحتفل بخروجي من هذا العزل المنزلي إلا بعد التأكّد، فأجريت عدة فحوصات، وكانت النتيجة مذهلة، فقد أكّدت الفحوصات أنني كنت فعلاً مصابًا بفيروس كورونا، وعرفت يومها أن بعض الأشخاص قد يصابون بكورونا، ولا تبدو عليهم أيّ أعراض؛ نتيجة قوة المناعة لديهم؛ فسجدت للّه شكرًا في الحال، وكان أول شيء أفعله ليس الذهاب إلى أسرتي والاحتفال معهم، ولكن ذهبت إلى أسرة صديقي ياسين، وأعطيتهم مبلغًا من المال، وأخبرت زوجته أن ياسين كان شريكًا لي في المطعم، وكان هذا المبلغ الذي أعطيته لزوجة ياسين هو ما استدنته من ياسين سابقًا، ولم يطالبني به يومًا ما، أما حكاية أنّه شريكي في المطعم فهذا لم يحدث، ولكن هذه ذريعة كي أعطيهم ما أعطيهم كلما أجيء إلى بلدي بعد زوال تلك الغمّة، فلقد أعطاني ياسين الكثير والكثير، عدت من عند أسرة ياسين، وأنا منشرح الصدر، مستغفرًا لربي، وشاكرًا لأنعمه، واحتضنت زوجتي وأولادي لأول مرة بعد مجيئي!

أحسست الآن أنني قد وصلت لشاطئ قصّتي، فرحت أقرأ التعليقات على الفيديو بصورة أكبر، وكانت أكثرها تهنّأني بسلامتي، والتضرّع برفع الغمّة، وإعلاء قدر الاستغفار، والدعاء بالرحمة لياسين، ولكن بعض التعليقات على ما سردته، كان فيها نوع من التهكّم، فقد قال أحدهم:

- أنت درويش، تدعونا إلى ترك العلم، والبحث عن لقاح لهذا الوباء، واللجوء إلى الاستغفار!

فرددت عليه بكلّ أدب:

- أنا لم أقل هذا، فيجب أن يسير البحث عن لقاح جنبًا إلى جنب مع الاستغفار والتوبة إلى الله، يبدو أنّك لم تشاهد (الفيديو) كاملاً، أو أنك لا تؤمن بدين أصلاً، فلا مجال للجدل معك!

وقف معي الكثير من المعلقين، وأكّدوا أنّني لم أكن أدعو إلى الاستغفار وحسب، وترك أسباب التداوي، بدليل الحديث الذي ذكرته عن التداوي على لسان ياسين.

وكان من بين التعليقات التي لمست موهبة قديمة كانت لديّ قول أحدهم، ويبدو أنه أديب:

- نشعر لديك بروعة الحكي والسرد الماتع، فهل جربت أن تكتب القصص القصيرة؟

فقلت له بعد شهقة آتية من الماضي:

- لقد ذكرتني بالذي مضى، لقد كنت فعلاً أكتب القصة، وأنا في الجامعة، ولكن بعد تخرجي، والبحث عن فرصة عمل، نسيت هذا الأمر، وأصبحت أعيش القصص أكثر مما أؤلفها!

فألقى عليّ هذا السؤال:

- ماذا تسمّي هذه القصة التي عشتها، وحكيتها لنا؟

- الاستغفار ينتصر.

- ما أجمله من عنوان!

بعد أن انتهيت من بثّ (الفيديو)، راح ينتشر في وسائل التواصل الاجتماعي بصورة كبيرة، لم أكن أتخيّلها، بل بعد عدة ساعات من البث، اتّصلت بي بعض القنوات الفضائية، تعرض عليّ أن أحكي قصتي مع كورونا، وكيف تغلبنا عليه،

أنا وصديقي ياسين -رحمه اللّٰه-بل وعرضت قنوات منهم مبلغًا ماليًّا مجزيًا مقابل أن أحكي ما حدث على شاشتهم!

المولود

هشام عبد المنعم عبد الحميد

كنت في غاية الخوف وأنا أنهي إجراءات دخول المستشفى، كنت أحاول التماسك والظهور بمظهر القوية إلا أن داخلي كان يرتجف في عنف، وعقلي تغشاه المخاوف، وتضنيه الوساوس، كنت أستعيد مشهد زوجي وهو مرهق شاحب الوجه منذ عرفنا أن نتيجة تحليل فيروس كورونا كانت إيجابيّة بالنسبة لي، منذ عرف كان دائم التشجيع لي، ولا يفتأ يردّد أن الأمر ليس مخيفًا كما يصوّر الجميع، وأنها مجرّد أيام قليلة، سنغادر بعدها المستشفى عائدين إلى منزلنا؛ لنستعدّ لشراء كلّ ما يلزم مولودنا القادم، صعدت إلى غرفتي بمستشفى العزل، والذكريات تداهمني وصور الماضي القريب تتتابع على مخيّلتي، سنوات عشر منذ تزوجنا ونحن بانتظار المولود، لم يكن هناك ما يمنع أحدنا من الإنجاب طبّيًّا، كدتُ أجنّ؛ وأنا أتلقّى هذه الإجابة من طبيب تلو الطبيب، وأدعو اللّه أن يحقّق لي ولزوجي أمنية الإنجاب، كان زوجي حنونًا فكان يهدهد قلقي، ويدعوني للصبر قاصًّا عليّ كثيرًا من حكايات النساء اللواتي تأخّرن في الإنجاب، ولكن حنانه وتشجيعه لي كان يلهب رغبتي في الإنجاب أكثر، ولكن السنوات تمرّ ولا جديد يحدث حتى تسرّب اليأس إلى قلبي؛ مما دفعني لأن أحادثه في أمر الزواج بأخرى لتحقّق له حلم الإنجاب، ووقفت أمامه أنتظر ردّه، وأنا أشفق على نفسي من أن يوافق، وأشفق عليه من ألاّ يفعل، وتعلّقت عيوني بشفتيه، وقلبي تتطاحن دقّاته، وقدماي لا تكادان تحملانني، لم يتحدّث وقتها، كلّ ما فعله أنّه نظر لي نظرة عتاب عميقة، ثم نهض من جلسته، وحملني بين ذراعيه، بعدما كانت قدماي توشكان على خيانة صلابتي المفتعلة؛ فسكنت ارتجافة قلبي، واستعاد قدرته على ضخّ دماء الحياة في جسدي.

بعدها بسنوات حدثت المعجزة، كنت غير مصدّقة حتى بعدما أكّد لي طبيب النساء، وما كدت أخرج من عيادة الطبيب؛ حتّى انهمرت في البكاء، واحتضنني زوجي في حنان، وأركبني السيارة، ووجهه يتألّق بالسرور، ولسانه لا يتوقّف عن

تهنئتي؛ شاكرًا اللّه، كنّا بعدها نتعجّل الأيام والشهور؛ حتى نرى مولودنا الذي انتظرناه عشر سنوات، ولكن كورونا بدأ في اجتياح العالم واجتياح قلبي خوفًا من أن أصاب به ويحدث لجنيني مكروه، كنت أبالغ في الاحتياط ولكنني أصبت بالفيروس برغم ذلك فاسودّت الدنيا في عيوني، وشعرت أن فرحتي لن تكتمل وأنني لن أرى ابني.

قطع تأملاتي صوت الممرّضة، وهي تطمئنّ عليّ؛ فنظرت لها في يأس، فقالت وهي تبتسم: لا تخافي، كثيرات غيرك تعافين، وغادرن المستشفى وعدن لحياتهنّ الطبيعية.

أنعش قولُها بعض الأمل في قلبي فقلت لها:

-أحقًّا ما تقولين؟

-نعم، ولكن عليك أن تساعدي نفسك، وأن تكوني متفائلة؛ فذلك سوف يرفع من مناعتك ويساعدك على سرعة التعافي.

-أنا لا أخشى على نفسي بل على جنيني.

-هل هو أول حمل لك؟

-نعم وبعد عشر سنوات من الزواج.

-ستخرجين وتسعدين به قريبًا.

طمأنني حديثُها قليلاً، ولكن عادت الظنون تلعب برأسي، ومن يدريني فهناك الكثيرين ممّن أهلكهم الفيروس، واشتدّ خوفي، وأحسست بجدران الغرفة تطبق على صدري، فأخذت أبكي في صمت حتى أنهكني البكاء، وأسلمني للنوم.

أيقظتني يد حانية من النوم، فنظرت، فإذا بها الممرّضة ذات الوجه البشوش؛ جاءت لتعطيني الدواء، وتقيس درجة الحرارة وغيرها من العلامات الحيويّة، نظرت إلى يديها، فرأيت خاتم الزواج الذهبيّ يزيّن يدها اليسرى، ولاحظت هي نظراتي فابتسمت وقالت: نعم، أنا متزوّجة.

-هل لديك أطفال؟

-نعم، رزقني اللّه بمحمد وياسمين.

-ولكن، ألاّ تخافين من الإصابة بفيروس كورونا؟

-بالطبع أخاف مثل كلّ إنسان، وأخاف على أولادي أكثر من خوفي على نفسي، ولكن لو خافت كلّ ممرضة، وخاف كلّ طبيب؛ فمن سيعالج المرضى؟ إنّنا مثل الجنود في الحرب لا يمنعهم الخوف من الموت عن القتال، ثم أليس من الممكن أن أصاب بالمرض خارج المستشفى؟ هذا قدر والقدر سيصيبني في أيّ مكان.

-أنت شجاعة وحكيمة.

-شكرًا لك، انظري هناك... وأشارت بيدها نحو فاصل بالغرفة يفصلني عن سيّدة مريضة بجواري، كانت سيّدة مسنّة وكانت نائمة، ولكن وجهها المغضَّن كانت تنيره ابتسامة رضا.

أشارت لها الممرّضة وقالت: هل ترين تلك السيّدة العجوز؟ لقد جاءت في حالة سيّئة للغاية، وكان كلّ الأطبّاء يرون أنّها ستموت قريبًا، ولكنّها كانت دائمة الرضا والثقة باللّه، ولسانها لا يتوقّف عن الذكر، وحمد اللّه، والدعاء أن يمنّ اللّه عليها بالشفاء، وقد تحسّنت حالتها، رغم أنّها ما زالت تعاني من صعوبة التنفّس.

عدتُ أنظر للعجوز النائمة في هدوء؛ وشعور بالارتياح والأمل يغمرني، وكأنمّا شعرت العجوز بنظراتي فاستيقظت من نومها، والتفتت نحوي وقالت: سلامتك يا بنيتي؛ إن شاء اللّه ستتعافين بسرعة، فقط سلّمي أمرك للّه وتوكّلي عليه.

-سلّمك اللّه يا أمّاه، في الحقيقة أنا فقط خائفة على جنيني الذي جاء بعد عشر سنوات من الانتظار.

فاتّسعت ابتسامتها المنيرة، وقالت: وهل تظنّين أنّ الذي منحك الأمل الذي ظللت تنتظرينه كلّ تلك السنوات أعطاك إيّاه ليسلبه منك؟! رحمة اللّه واسعة يا بنيتي.

وساد الصمت بيننا، وجلال الكلمات يظلّل المكان، وشعور بالراحة والأمان يملأ قلبي؛ حتى أنّني صرت أتساءل: كيف كنت قلقة من قبل؟

كنّا في شهر رمضان المبارك، والذي اختفت السمات المعتادة له؛ بسبب الإجراءات الاحترازية للتحكّم في انتشار فيروس كورونا، كان هذا الأمر يحزنني

أنا ورفيقتي العجوز بشدّة، وبخاصّة عدم قدرة الناس على صلاة التراويح، كنّا نشاهد صلاة التراويح التي تبثّ من المسجد الحرام الخالي من عُمّاره، الذين كان يكتظّ بهم في رمضان من كلّ عام، ونبكي، كانت العجوز تقصّ عليّ رحلتها للحجّ، وتصف لي شعورها بالفرحة والسكينة، وهي تقف أمام الكعبة المشرّفة، ودموعها التي انهمرت دون أن تدري لتغسل عنها عناء وهموم وأحزان السنين، كانت تحكي وتبكي، وكنت أبكي معها، وندعو سويًّا أن يعود للمسجد عُمّاره، وأن نكون من ضمنهم، كانت العجوز تقول: يحرمنا الله أحيانًا من بعض نعمه لندرك قيمتها ونعود إليه.

عادت بي الذكريات لأيّام طفولتي في ذلك الحيّ الشعبيّ، الذي كنّا نسكن فيه، والذي كان يتزيّن بتلك الزينات البسيطة؛ فور قدوم الشهر الفضيل، وننطلق نحن الصغار نلعب بفوانيسنا البسيطة، ونغنّي الأغاني الشعبية المتوارثة منذ القدم، تذكّرت تجمع أطفال الحيّ كلّ يوم نلعب ونلهو، واستعدتُ ذكريات تجمّعات العائلة، وطعام رمضان المميّز وحلواه الخاصّة، تذكّرت أمّي؛ وهي تجمع نساء العائلة لعمل الكعك والبسكويت، وكيف كنّا ننتظر عودتهم من الفرن لنخطف الكعك والبسكويت اللذيذ؛ الذي ما زال طعمه ورائحته في فمي وأنفي حتى الآن، تذكّرت ملابس العيد، ونحن نرتاد المحلاّت بعد الإفطار، لشرائها قبل العيد، هل يقدّر لي أن أحيا هذه الطقوس الرمضانيّة ثانية؟ وهل أعيشها مع ابني؟

كنت أحكي ذلك لمرافقتي العجوز؛ فتقول لي: يا لها من ذكريات جميلة أعادتني سنوات طويلة للماضي، أشعر أنّ كلّ ذلك سيمر وسنعود لحياتنا الطبيعيّة قريبًا جدًّا.

ومرّت الأيام، وحِدّة أعراض المرض تقلّ مع ارتفاع معنويّاتي؛ في وجود تلك العجوز الملاك، التي شعرت أنّ الله قد أرسلها لي؛ لينتشلني من براثن المرض، وتحسّنت حالتها هي الأخرى؛ ممّا أسعدني كثيرًا، ومن حسن الحظّ أنّني تعافيت وحان وقت خروجي، في نفس وقت خروجها.

جاءت تزورني بعد عدّة أيّام، كنت سعيدة بها جدًّا، حاولت أن أكرم ضيافتها، ولكنها اعتذرت عن تناول أيّ شيء بخلاف كوب من العصير، كانت شاحبة قليلاً ويبدو عليها الحزن، حزن نبيل يسكن في عيونها ويتسلّل إلى وجهها الراضي،

سألتها مرارًا، ولكنّها قالت: جئتُ للاطمئنان عليك، ولا أريد أن أضايقك بمشاكلي. فقلت لها: ألا تعتبرينني كابنتك؟ فترقرق الدّمع في عيونها، فاحتضنتها، وقلت لها: قولي لي ماذا بك يا أمّاه؟

اهتزت السيّدة من وقع كلمة (أمّاه)، واهتززت أنا الأخرى فلم أقلها لأحد منذ سنوات منذ توفيت أمّي، ولكنّني شعرت بشعور يولد في داخلي أنّ هذه السيّدة أمّي حقًّا، وانساب خيطٌ من الدمع على خدّها وقالت: أنا أشعر أنّك كابنتي فعلاً، وكلّما حادثتك، أو رأيتك؛ وجدت بعض السلوى عن ابنتي... فقلت لها في حذر: هل ابنتك...؟ ولم أستطع أن أكمل فقالت: هي لا، إنّها حيّة، ولكنّها تعيش في أمريكا منذ سنوات مع زوجها وأولادها.

-ألا تنزل لتراك؟

-لا، منذ سافرت لم تنزل، واكتفت بالاتّصالات؛ كلّما كان لديها وقت، ويبدو أنّ وقتها مشغول للغاية.

-اعذريها يا أمّاه، ولا تغضبي منها.

-لست غاضبة، ولكنّها أوحشتني جدًّا، وكذلك أحفادي، كما أنني أخشى عليهم من الإصابة بكورونا، خاصّة وأنّني أشاهد في التلفاز أن الإصابات والوفيات هناك كثيرة جدًّا.

وعادت الدموع تنهمر من عيونها، ولكنّها جفّفتها في سرعة، وقالت: سامحيني يا بنيتي! فقد أزعجتك بمشاكلي...

-لا تقولي ذلك، بل أنا سعيدة أنّني صرت قريبة منك؛ لتحكي لي أمورك الشخصيّة، وبالتّأكيد ستتصل بك ابنتك قريبًا، وتطمئنّي عليهم.

وخطرت ببالي فكرة فقلت لها: هل يمكن أن تعطيني صورة لابنتك؟

-معي صورة أحتفظ بها دائمًا في حقيبتي لها ولأحفادي.

فأخرجت تليفوني المحمول وقمت بتصوير الصورة.

وسألتها عن اسم ابنتها فقالت: اسمها سميرة.

ومن يومها صرت أتّصل بالسيدة العجوز، عدّة مرّات في اليوم، كما كنت أفعل مع أمّي بعد زواجي، ونظلّ نتحدّث ونثرثر في كلّ شيء.

وباستخدام الصورة؛ بحثت عن حساب ابنتها سميرة على وسائل التواصل الاجتماعيّ؛ حتّى وصلت له، وأرسلت لها رسالة حكيت فيها كلّ ما دار بيني وبين أمّها، وطلبت منها أن تتّصل بالأمّ؛ حتّى تطمئنّ عليها وعلى أسرتها.

وصرنا أصدقاء وصارت سميرة تتواصل يوميًّا مع والدتها كما وعدتها بزيارة قريبة؛ ممّا أسعد العجوز الطيّبة، وزاد ذلك من ارتباطها بي، ذلك الارتباط الغريب الذي دبّره القدر عبر مرضي، الذي كنت أعدّه نهاية العالم، فإذا به يفتح الطريق لحياة جديدة لي ولهذه السيّدة الحنون.

ومرّت الشهور، وجاء موعد الولادة، وعندما أفقت من تأثير المخدّر وجدت وجهها الطيّب المنير بين الوجوه المحيطة بي؛ تنتظر إفاقتي بعد وضع طفلي، وكان معها وجه غريبٌ عنّي، وجه شابّة في مثل عمري، واعتصرت ذهني المشوّش؛ لأتذكّر ذلك الوجه الذي يبدو لي مألوفا... إنّها ابنة السيدة! لقد جاءت من أمريكا لرؤية والدتها، وللمصادفة السعيدة كان موعد الطائرة التي أرسلتها مصر لنقل من يريد العودة قبل ولادتي بيومين لتشاركني سميرة والأمّ في هذا الحدث السعيد.

وفي منزلي جلسنا بعد استرداد عافيتي بعد الولادة، كانت الأمّ في غاية السعادة، يضيء وجهها بشرًا بوجود ابنتها معها؛ فسألتها عن الأحفاد ولماذا لم يأتوا معهما فقالت سميرة: فضّلنا تركهم في المنزل؛ حتى لا يسبّبوا لك إزعاجًا.

-لا تقولي ذلك فأنا متشوّقة لرؤيتهم، ولكن هل تركتِهم وحدهم بالمنزل؟

-لا، فوالدهم قد جاء بالأمس من أمريكا، ونظرت لوالدتها وابتسمت بينما ازداد إشراق وجه الأمّ حين جاء ذكر عودة زوج ابنتها فقلت لهما: يبدو أن هناك أنباء سعيدة...

فقالت الأم: نعم يا بنيتي، فقد قرّر زوج ابنتي العودة لمصر.

-هذا خبر رائع، ولكن ما الذي غير رأيه؟

كنت قد علمت من سميرة أنّها ملّت الحياة بعيدًا عن مصر، وأمّها، وأصدقائها، وكثيرًا ما ألحّت على زوجها للعودة ولكنّه كان يرفض.

قالت سميرة: إنّها كورونا، أصيب أحد أصدقائه المقرّبين هناك بكورونا، وساءت حالته حتى شارف على الموت، كان كلّ ما يؤلم هذا الصديق أنّه يريد رؤية والديه وإخوته، وأن يدفن في تراب وطنه، ولكن نظرًا لغلق الطيران مع بلده لم يكن هذا ممكنًا، هزّ هذا الموقف زوجي بشدّة، وشعر أنّ هناك أولويات في الحياة، وأنّ المال ليس كلّ شيء، وأنّ هناك أشياء لا يستطيع المال شراءها، وظلّ أيّامًا طويلة مشتّت الفكر... حائرًا؛ لا يدري ماذا يفعل، كانت ذكرياته في مصر تلحّ على عقله صباحًا ومساءً، تذكّر طفولته السعيدة، وأيام البراءة والنقاء مع جيرانه وأصدقاء طفولته، تذكّر أوّل يوم في المدرسة، حبّه للقراءة، ومكتبة المدرسة الكبيرة التي كان يقضي فيها أوقاتًا ممتعة، مباريات كرة القدم مع زملائه، ورحلات المدرسة إلى معالم مصر الجميلة، تذكّر الاحتفالات التي ليس لها مثيل بالأعياد والمناسبات، بالمولد النبوي، وشمّ النسيم، ورمضان بكلّ مظاهره المحفورة بداخله، تذكّر صلاة العيد مع والده حين كان صغيرًا يمسك والده بيده، وقد ارتدى ملابس العيد التي كان يضعها بجوار فراشه ليلة العيد، ويصلّيان متجاورين؛ لينطلق بعد ذلك يلعب مع أقرانه، ويشتري ما شاء من الألعاب، احتلّت صورة أمّه وأبيه عقله، وهما يبكيان في وداعه يوم سفره؛ فقد كانا يعلمان أنّه لا يريد العودة، رغم أنّه لم يقلها ولكنهما أحسّا به، تذكّر أحلامه وطموحاته التي من أجلها جاء إلى أمريكا، وحقّق بعضًا منها، صار ينظر الآن لهذه الطموحات الكبيرة فيجدها تتوارى في عقله وقلبه خلف تيار الذكريات العارم، شعر وقتها كم يحبّ مصر! وأحسّ أنه مخطئ حين قرّر ذات يوم ألاّ يعود إليها؛ سعيًا وراء النجاح في أمريكا، لماذا لا يعود ويبذل ما يبذله هنا من جهد وينجح وسط أهله؟ ربمّا سيواجه بعض العقبات، ولكن لِمَ لا يصبر حتى يتجاوزها؟! معه الآن الكثير من المال يستطيع البدء به في مصر من جديد... وبهذه المشاعر الفيّاضة التي ولدت بداخله؛ عاد على أول طائرة مصرية عائدة للوطن، مقرّرًا أن يستقرّ ويفتتح شركة جديدة.

وفوجئنا به يطرق باب المنزل؛ ليفتح له ابننا محمد، ويصرخ فرحًا؛ لنسرع جميعًا غير مصدّقين، ليأخذنا جميعًا بين أحضانه، والدموع تترقرق في عيوننا، وهو يخبرنا بنيّته البقاء معنا في مصر.

-لا تتصوّرين فرحتي لسماع هذه الأنباء السارّة! أنا حقًّا سعيدة من أجل أمّي الحبيبة... لعودتكم جميعًا، وبقائكم هنا، وأيضًا من أجل أن تكون لي أخت فأنا وحيدة لا إخوة لي.

وبينما كنت في شرفة منزلي أنظر إليهما وهما يسيران عائدين إلى منزلهما؛ كنت أستعيد ذكريات الشهور القليلة الماضية التي بدأت بأزمة؛ وضع اللّه بين طيّاتها منحًا عدّة لي ولهذه الأسرة؛ فقد صارت لي عائلة جديدة، أمٌّ حنون تعوّضني عن دفء المشاعر الذي افتقدته مذ رحلت أمّي، وأخت طيّبة القلب؛ نستعين بأخوّتنا على مصاعب الحياة، كما اجتمع شمل هذه العائلة من جديد في مصر؛ ليعيشوا معًا في سعادة، ويلتئم جرح قلب الأمّ العجوز بعودة ابنتها وأحفادها إلى أحضانها من جديد، بعد أن أضْنَتها الوحدة والشوق لهم، وهتفت من أعماق قلبي: أحمد اللّه على لطفه، ورحمته، وسعة فضله!